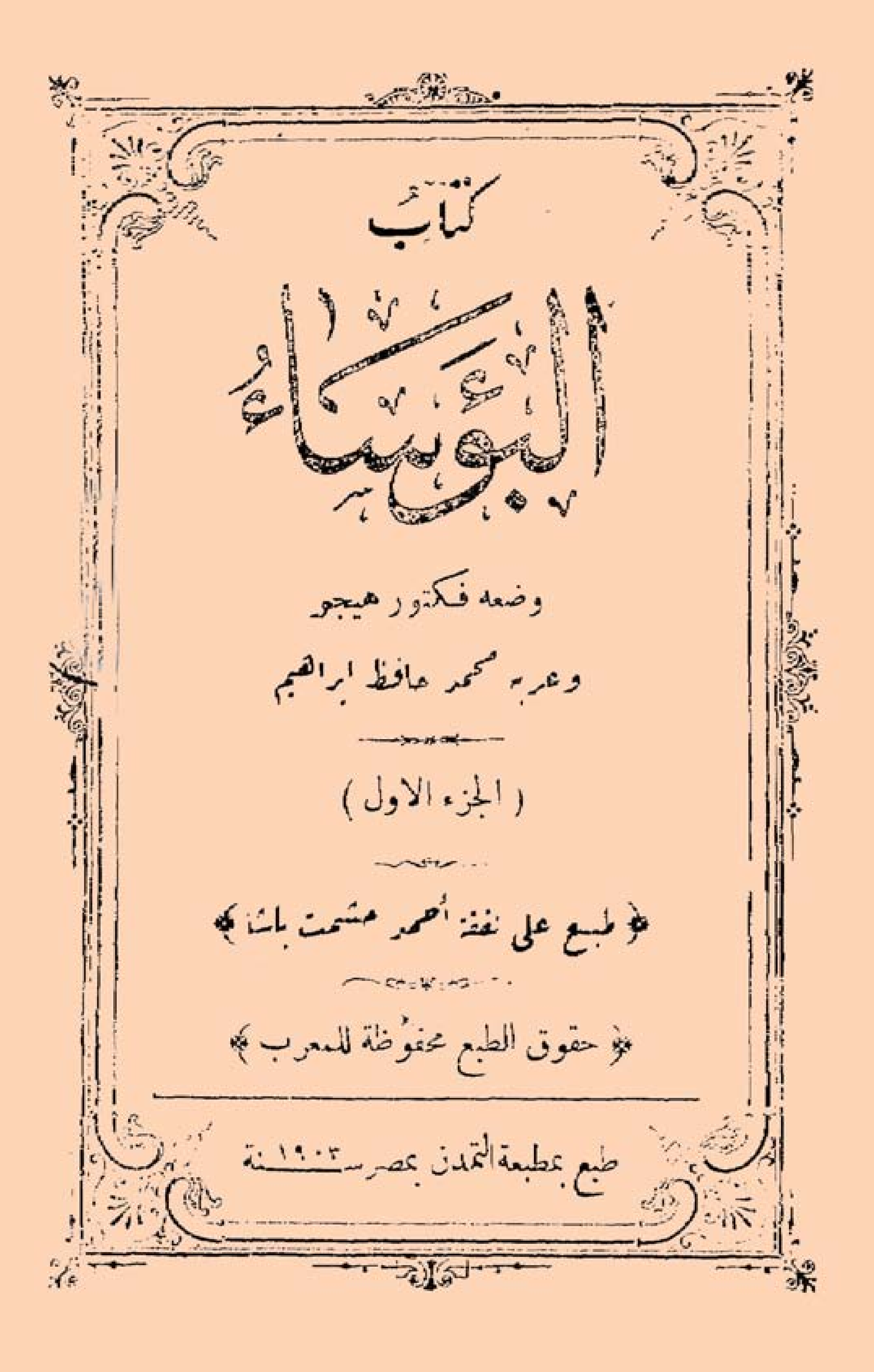


كتاب

البؤساء

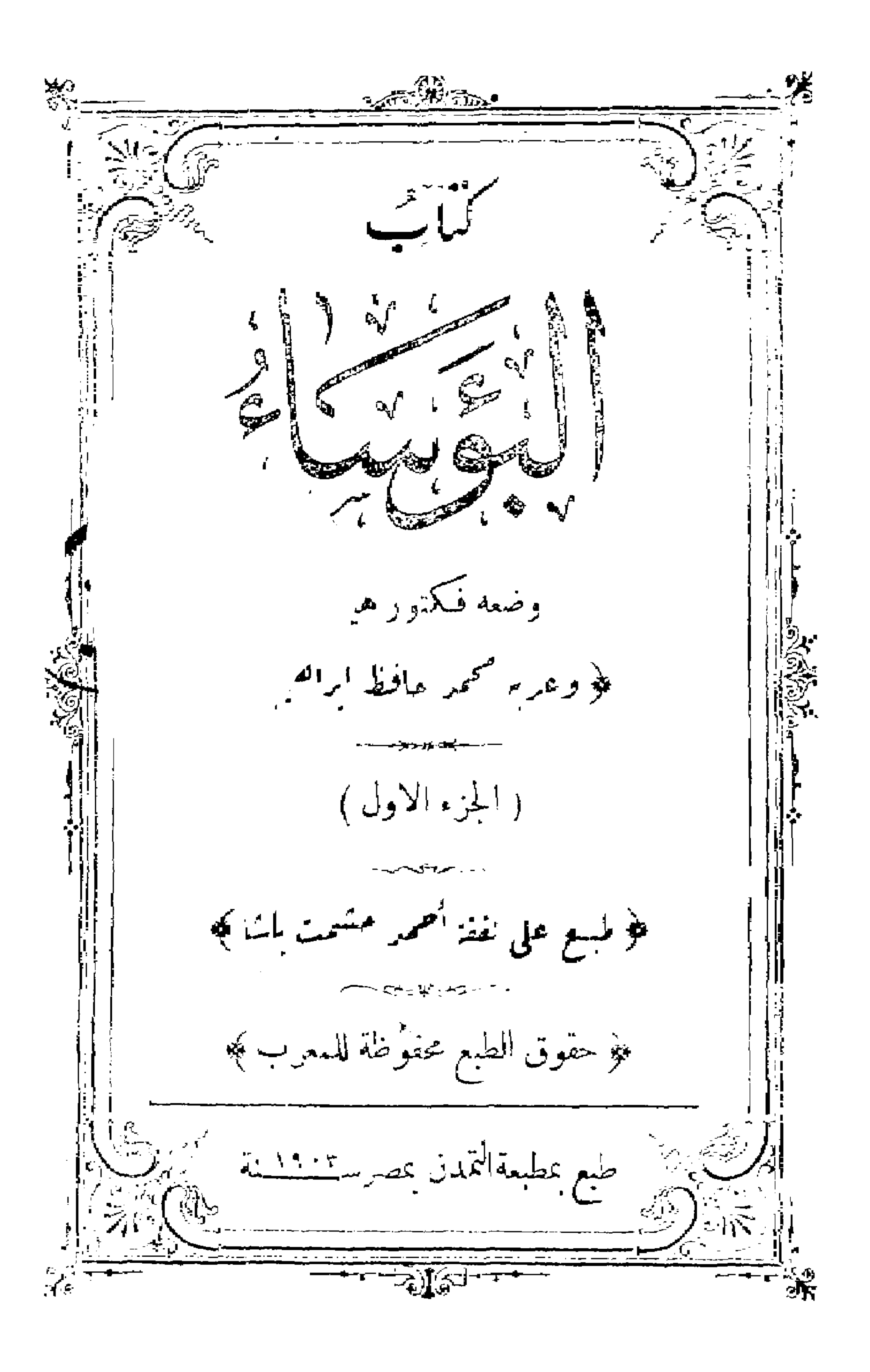
وضعه فكتور هيجو

وعربه محمد حافظ ابراهيم

(الجزء الاول)

﴿ طبع على نفقة أحمد حشمت باشا ﴾

طبع بمطبعة التمدن بمصر سنة ١٩٠٣



كتاب
البؤساء

وضعه فكتور هيجو

﴿ وعربه محمد حافظ ابراهيم ﴾

(الجزء الاول)

﴿ طبع على نفقة أحمد حشمت باشا ﴾

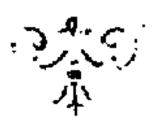
طبع بمطبعة التمدن بمصر سنة ١٩٠٣

﴿ الى الاستاذ الامام ﴾

انك موئل البائس ومرجع اليائس وهذا الكتاب أيدك الله قد ألمّ بعيش البائسين وحياة اليائسين — وضعه صاحبه تذكرة لولاة الامور وسماه كتاب البؤساء وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل)

وقد عنيت بتعريبه لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب وتصرفت فيه بعض التصرف واختصرت بعض الاختصار ورأيت ان ارفعه الى مقامك الاسنى ورأيك الاعلى لاجمع في ذلك بين خلال ثلاث — أولها التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك — وثانيها ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف سر الكلام ومقدار كنه الافهام — وثالثها امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي الى فتاه بقبوله والله المسؤول ان يحفظه للدنيا والدين وان يساعدني على اتمام تعريبه للقارئين







كلمة في التعريب

هذا كتاب البؤساء وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد . وضعهُ صاحبهُ وهو بائس . وعربهُ معربه وهو بائس . فجاء الاصل والتعريب كالحسناء وخيالها في المرآة . وضعه نابغة شعراء الغرب وهو في منفاه ، وعربه كاتب هذه الاسطر وهو في بلواه ،

ولولا انني أشرب بالكأس التي كان يشرب بها ذلك الرجل العظيم لما وصل مبلغ علمي الى مبلغ علمه ولما سبح يراعي في قطرة من سيول قلمهِ . ولو أن لي قلماً من أعواد أشجار الجنة وصحيفة من صحف ابراهيم وموسى وقد تلقتني البلاغة من كل جهة بفضلها

فسموت الى لباب مصاصها وأخذت منها حاجتي لما حدثتني النفس بتعريب ذلك الكتاب لولا اتحادنا في الألم وتشابهنا في الشقاء

فلقد كنت أنظر فيه نظرة المنجم في الميقات ، واستوزع الله بيان تلك المعجزات ، حتى اذا نفذ الفكر الى ما وراء سطوره واهتدى الخاطر الى مكامن حكمه دعوت اليّ أمّ اللغات وعملت على التوفيق بين هذه الغادة الشرقية وتلك الفتاة الغربية وعمدت الى مدّ صلة النسب بين الغادتين اللتين انتهت اليهما بلاغة العرب وبلاغة الافرنج فاذا شمست إحداهما وازورّ جانبها اغريت بها سلطان العقل فلا يزال بها يروضها كما يروض الراكب الصعبة حتى تسكن الى اختها وترتاح الى جوارها . ولم تزل تلك حالي ادخل بينهما دخول المرود بين الجفن والجفن وأمشي بينهما مشية الحكيم في الصلح بين القوم والقوم حتى ائتلف الذوقان وامتزج الروحان وضمت شمسيهما طفاوة واحتوت بدريهما هالة وخلعت الاولى على الثانية جلالهـا وأعارتها الثانية نضارتها وجمالها . واصبحت تلك المعاني الافرنجية بعد ان صقلها اللسان المبين وجندرها الذوق الشرقي وهي تسكن في هذه المعاني العربية

ولم يقع للناطقين بالضاد حتى اليوم شيء من مؤلفات ذلك الحكيم وهم أحوج الناس الى معرفة أسرار الحياة والانتفاع بمثل

ذلك الفكر الذي كنت بينا أراه يسابح الاجرام في أفلاكها اذا هو يدارج النمال في مدابها وبينا ألمحه بين ذروة العلم وشرفة القصر اذا هو بين قاع البحر وعقيق النهر. فكم أفلت من هجيرة واختبأ في خميلة فمن تلهب جمرة الغيظ في صميم القائلة الى تراوح النجم في الروضة ومن التردد بين زفير العاشق وحرقته الى التمشي بين نفس الحبيب وريقته

ولا يزال الكتاب في كل أمة يلتمسون أن يعقل عنهم ما الهموا أن يدخلوه في مؤلفاتهم من الحكم والامثال فيصدحون عنها الشرور بأقلامهم كما يصدح[1] المطر ويستهبطون الحكمة من سمائها فيسكنونها بين سطورهم وينشدون لذلك الامثال فينثرونها فيما يتخيرونه من الاقاصيص التي تدعو الى العظة وتصفح النفوس عن ركوب سبل الغواية

ومن تلك الاقاصيص ذلك الكتاب الذي أعاني تعريبه اليوم

(١) أخرجها مثلاً وكان من وساوس العرب اذا خشوا سقوط المطر أن يعمد أحدهم الى خيمته أو عطنه فيرسم حولها دائرة ويتلو رقية يعلمها رجاء ان يخطئ المطر في سقوطه ما يكون ضمن تلك الدائرة . وقد كانت هذه الصدحة مما استعان به المتنبي على تأييد دعواه في النبوّة

فلقد قص علينا صاحبه أحسن القصص فكان مثله فيه كما قال عن نفسه مثل المنجم الذهبي لا تصل الايدي الى تبره حتى تكاد تحصي ثراه عداً ·

وقد خار الله لي أن أعرّبه فاستعنته فأعانني واستهديته فهداني وسلخت اثنى عشر هلالاً في تعريب تلك الصفحات التي ترونها اليوم · وحاولت أن أصل بها تلك الرحم التي قطعتها يد الترجمة التجارية بيننا و بين اولئك الرجال الذين تجردوا لتعريب أساطير الاوّلين فوفوها قسطها من الاتقان وألبسوها من البهجة لباساً ترضاه اللغة و يرضاه ابناؤها

أرأيتك أيها الناظر في كتاب كليلة ودمنة ؟ أكان يقوم بنفسك وانت تذوق حلو تركيبه وتستمرئ لذة اسلوبه ان عبد الله بن المقفع قد عرّبه عن الفارسية لو لم يصل خبر ذلك اليك ؟ فسقياً لتلك الاقلام التي عربت فأعربت ، وسطرت فاعجبت ، وواهاً لهذه اللغة التي اصبحت بين اعجمي ينادي بوأدها ، وعربي يعمل على كيدها ،

ومن نظر في بطون تلك الكتب التي تترجم اليوم رأي هذه الغادة الشرقية وهي على فراش موتها تندب خدرًا قد ابتذلته الاقلام ، وسترًا قد هتكته الاوهام ، وقد فتحوا لها في بطون هذه

الكتب قبورًا وخاطوا لها من تلك الصحف أكفانًا وهيأوا من هذه الاقلام اعوادًا ، وما هو الا أن يثني ذلك الغربي بدعوته حتى يسرع الى جنازتها اهلها وذوو قرابتها

اللهم انت تعلم اننا نعلم موضع الداء وفينا الطبيب الماهر ، ونسمع ذلك النداء ومنا المعين الناصر ، اللهم ان هذا خذلان منك فادركنا برحمتك وهيئ لنا من امرنا رشدا

أيكون بين ابناء اللسان العربي مثل من أرى اليوم من فحول البلاغة وملوك الكلام وأنا لا اعرف من هذه الزهور قديمها وحديثها غير أسماء معدودات ، ولا اكاد أجيد وصف قصر من القصور أو آلة من الآلات ، ومخترع من المخترعات ، الا ما وقع تحت نظر العرب في تلك الجزيرة الجرداء ، وما سمت اليه حضارتهم في عهد الدولة الاندلسية . أيّ رجل كان صاحب كتاب البؤساء ، وأيّ غيث سقاه ، وجوّ حواه ، حتى أدخل في لغته من الكلمات ما يخطئه العدّ ووقف في وجوه المعارضين فيها وقفة البسفور في وجوه الطامعين في هذه الدولة حتى انقلبوا عنه خاسرين ؟ أو ليست رجالنا بقادرين على أن يأتوا متساندين بمثل ما اتى به ذلك الرجل وهو وحيد ؟

تباركت أسماؤك اللهمّ أيدعى البعير وهو ذلك المركب الخشن بهذه الاسماء التي تضيق عنها بطون الكتب ، وهذه مراكب البخار

والكهرباء لانكاد نجد لاسمائها مرادفاً في هذه اللغة فما عسى أن تكون حالنا بجانب ذلك العربي الذي يقول في وصف عيشه

الابيضان أبردا عظامي الماء والفت بلا ادام[1]

وهو فوق راحلة ظالع على قتب يكاد يدمى عجانه تحت شمس تكاد تأكل ظلها في مفازة

تمشي الرياح بها حيرى مولهة حسرى تلوذ بأطراف الجلاميد

اذا أردته على ان يصف تلك الراحلة العجفاء فارهف بالقول وسرد من الوصف ما يبلغ حد الاعجاز واردتنا على ان نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخوان ونتبوأ أريكة « الاوتومبيل » تحت ذلك الظل الظليل في مخارف[2] ضفاف النيل على فراش وثير ومتكأ من حرير بين نسيم عليل وماء سلسبيل ذلك المركب الذلول الذي لا تلحق به صافنات الخيول فوقفنا أمامك موقف الحائر لا نعرف له اسماً يدل على مسماه ولا مرادفاً في اللغة يؤدي معناه

فخذوا أيها القادرون على الاصلاح بيد اللغة وانظروا كم أدخل

---

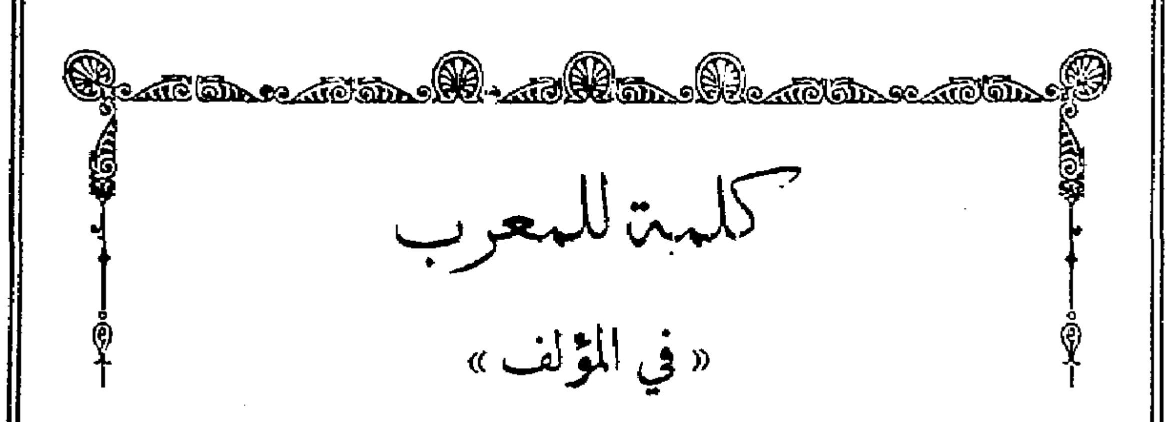
(١) تقول العرب الابيضان عن الماء والفت والاحمران عن اللحم والخمر

(٢) جمع مخرف وهو المنتزه

فيها آباؤكم الاوّلون من كلمة فارسية

وهذا كتاب الله بين أيديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه . وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم يصبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منهما آمنين





كلمة للمعرب
« في المؤلف »

وُلد هيجو والقرن الغابر صبيٌّ في مهده لم يدرج من حجر أمه ، ولم يفرّق بين أمسه ويومه ، فاصطحبا طفلين ثم افترقا ، وضرب الدهر بينهما بضرباته فالتقيا شيخين فانيين ، فاذا الاوّل سيد القرون ، واذا الثاني نادرة البطون ، هذا يمشي على قدمين من ليل ونهار ، ويطير بجناحين من كهرباء وبخار ، وذاك يتوكأ على عصوين من عظة واعتبار ، ويرتدي بثوبين من حكمة واختبار ، وقد جلس الاوّل على سرير دولة الايام ، وأخذ الثاني بصولجان دولة الاقلام ، فالتقت دولة العجب ، بدولة الادب ، واجتمعت بدائع الاختراع ، ببدائع اليراع ، فاخضل ظل هاتين الدولتين ، وامتد من المغربين الى المشرقين ، فظل الناس بين نعيم الحرية ، ونعيم المدنية

سبحانك اللهم هل كانت تعقل هذه الذرات وهي في عالم السديم ، ان سيرتقي بها الحال الى العيش في هذا النعيم ، فتبارك الله

الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ،

وُلد هيجو واللغة الفرنسية بمنزلة بين الضعف والحاجة ، والقوم بين أسر التقليد ، وذل التقييد ، والادبُ لم يبق منه الا الذماء ، فأنبتهُ أبوهُ نباتًا حسنًا ، فما كاد يشهد ستة عشر ربيعًا حتى تحركت نفسهُ الى معالجة الشعر فقرض قصيدة دار لها فلك البلاغة ، وردّدها لسان الكون ، رفعها الى المجمع العلمي فاهتزت جوانبهُ عجبًا ، وكادت تطير اعضاؤه طربًا ، ولولا أنهُ كشف فيها عن سرّهِ ، وأوضح عن بيان عمرهِ ، لاجذلوا ثوابهُ ، ورفعوا جنابهُ ، ولكنهم قارنوا بين شعرهِ وعمرهِ ، فاستنزروا أيامهُ ، واستغزروا بيانه ، فظنوا انهُ يسخر منهم ، فلم يجيزوهُ الا يسيرًا ، وهبت بعد ذلك رياح سعوده ، فأخذ بناصية القوافي ، وتنازل له سلطان الخيال فسبح في ملكوته ما شاء الفكر وما زال يتنقل في تلك العوالم الخيالية حتى نودي به أميرًا على دولتي النظيم والنثير

وشجر بينه وبين جماعة الشعراء الخلاف فرأوا الحفاظ والتمسيك للقديم ورأى غير ذلك ، فلم يزل بهم يصابرهم ويطاولهم حتى ظهر عليهم ، ورفع للشعر منارًا أطلّت منه الحقيقة بجلالها ، وأشرفت منه الطبيعة بجمالها

ولما صدع قيود الشعر ، وأطلق سراحهُ من سجن التقييد ، وقد

وقف اذ ذاك على أبواب الثلاثين من عمره ، نظر فاذا فن التمثيل يتضاءل تحت أستار الملاعب ، تضاؤل الحسناء تحت الاطمار ، لأخذ رجاله بأسباب التقاليد ، وترسمهم أثر الرومان واليونان فيما وضعوه من الاقاصيص التي تمثل أدوار تلك الأزمان الغابرة ، ورأى أن الواضعين فيهِ لم يجيئوا بما ينقع الغلة ، فانبرى الى منازلة أولئك المقلدين ، وقامت بينها حرب عقدت عجاجها الاقلام ، وأدارت رحاها الافهام ، فما زال يكر عليهم بجيوش البيان ، وكتائب البرهان ، حتى خضعوا لقلمهِ ، وساروا تحت علمهِ

ولاحت بعد ذلك تباشير الاصلاح في سماء الأدب ، وظهر كتابهُ الذي سماهُ نتردام دوباري (Notre dame de Paris) فطلع على الناس طلوع القمر على المدلج الحائر حشرت لهُ فيه اللغةُ جنودها من الالفاظ والمعاني ، فاستعرضها صفاً صفاً ، وتفقدها حرفاً حرفاً ، ثم أبرزها الى ميدان التحرير على أحسن تعبية وأكمل نظام ، وقد وفق بين قلبها وجناحيها كما يوفق القائد الخبير

ولما قضى من الأدب لبانته ، وأخذ من الشعر حاجته هجر الشعر الى السياسة ، وما هي الا جولةٌ من جولات الفكر ، حتى دعتهُ السياسة الى مواصلة الشعر ، ليوضح لها سبيل استهواء الافئدة ، واستبطان الضمائر ، ويكون طليعتها في اكتشاف ما يستكن في قرارة

النفس وخلجان الفؤاد ،

وبلغ هيجو من السياسة كوكبها ، فركب على سفين الحرية عرض بحارها ، فما زالت توفي به من بحر الى بحر ، وترمي بهِ من عِبر الى عِبرٍ ، وهو على ظهرها يطالع في أُفق الدهاء ، صحيفة الرجاء ، وقد وضع أمامه ابرةَ الأمل ، وجعل وجهته قطب العمل ، حتى بلغته شاطئ آمالهِ وحمد مغبة أعمالهِ

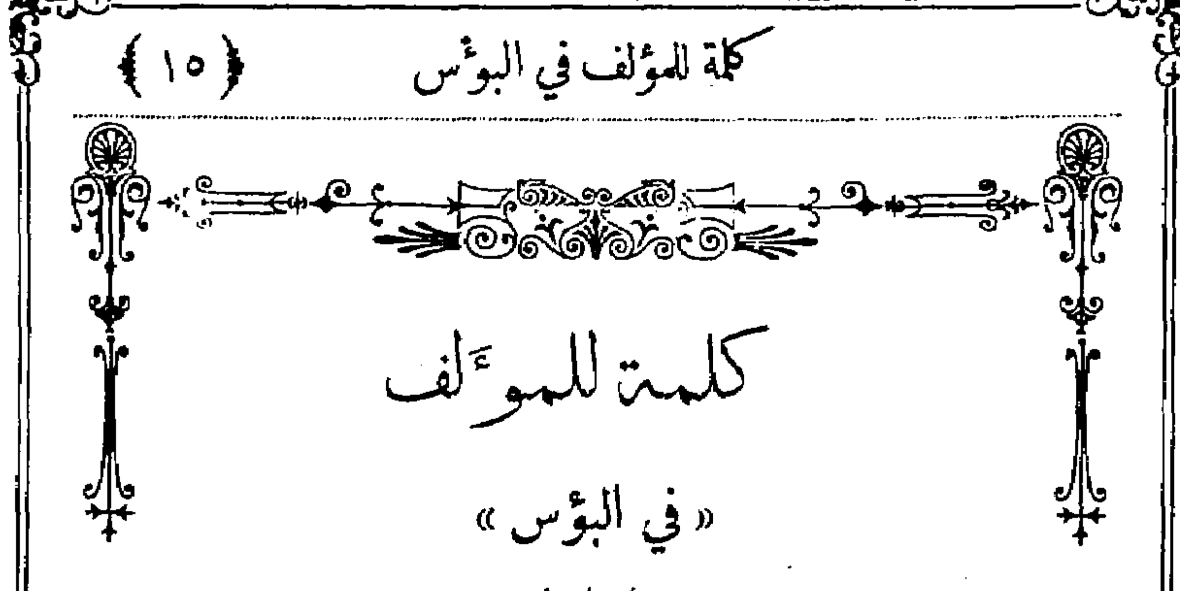
وما كاد يتنسم الافرنس نسيم الحرية حتى هبت ريح الاستبداد من رقادها ، وعصفت من جوانب العرش المالك ، فاحتملت هيجو على اكتافها وأندفعت بهِ حتى اذا بلغت سماء بروكسيل عاصمة البلجيك ، ألقت به هناك في منفاه الجديد

فنزلَ الرجل متماسكاً لم يعترهِ الدهش ، ولم يتطرق الى عزمهِ الخول وَغادر باريس وقد اقسم ان لا يهبطها أو يهبط عرش الملك فيها ، وبرّت يمينهُ فانه لم يطأ أرضها حتى وطئتها بوادر خيل الالمان في حرب السبعين

ولبث هيجو في منفاهُ وكانت أيامهُ فيه أخصبَ أيام حياتهِ فأسلس العنان لفكره ، وأوسع المجال لقلمهِ ، فوضع كتابه الذي سماه نابليون الصغير ، ونظم بعده كتاب العقوبات فنال فيه من نابليون الثالث ما لم ينلهُ منه زوال ملكهِ ، وكان عليهِ أشدّ غضاضة من

تسليم سيفه الى يد عدوّه في يوم خذلانهِ ،

وجاء ذلك الكتاب مثال ما يملي الحقد على القريحة ، وتوحي الموجدة الى اليراع ، ووضع بعده كتاب المشاهدات وكتاب البؤساء الذي نعربه اليوم وكم له غيرها من مؤلفات جليلة ومنظومات بديعة منها ما صنعهُ في صباهُ كأوراق الخريف ، وأناشيد الشفق ، ومنها ما وضعهُ بعد عودته الى الوطن ككتاب العام الاسود ، ومات هيجو وهو نادرة الفلك ، وواحد عطارد



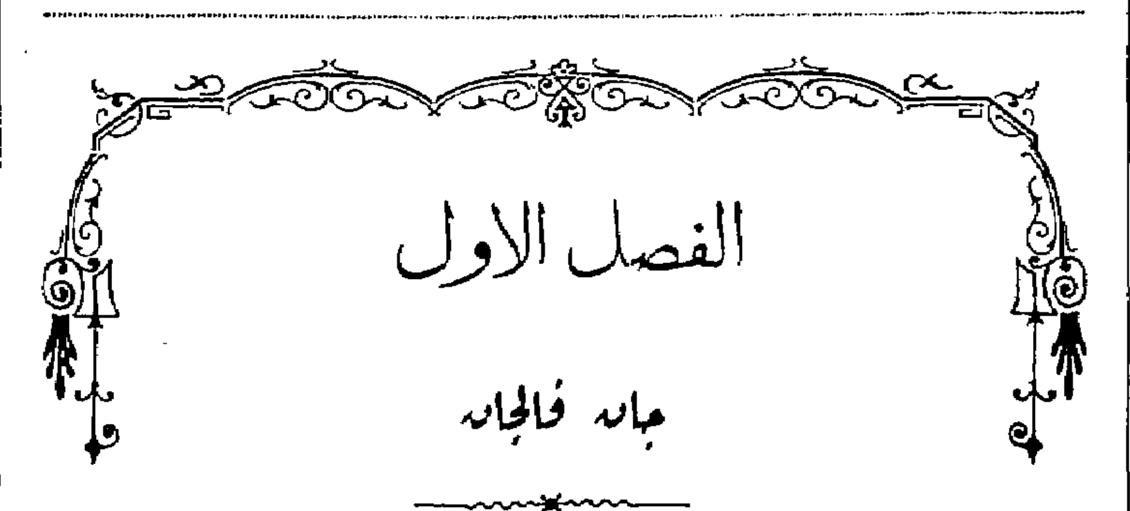
كلمة للمؤلف

«في البؤس»

مثل البائس الذي سجلته يد المقادير في سجل الفناء، وطوّحت به في ظلمات هذا الوجود، فمضى يتخبط في ديجور الحياة، يؤمه النحس، ويمشي على أثره الشقاء، تلعب به الايام لعب النكباء بالعود، ويدب في نفسه اليأس دبيب الآجال في الاعمار، كمثل الغريق ظفر به البحر الهائج في يوم ريح صرصر عاتية، فلبث معلقاً في خيط من الاجل تحت شقي مقص الفناء، يفتح له الوهم بين كل موجتين قبراً، ويمد له الخوف بين كل قطرتين بحراً، يطفو به القدر ويرسب به القضاء، فتتلقفه الموجة بعد الموجة، وتلتقمه اللجة بعد اللجة، وقد درجه البحر في كفن من الزبد، وحمله على نعش من الماء فوق أعناق امواج كالجبال، تعلو به تارة الى مجرى الافلاك، وتسفل به أخرى الى مسبح الاسماك، حنق عليه الماء والهواء، وزهدت في وجوده الارض والسماء، وكلما همّ بالاستسلام للموت أدركه الحرص على البقاء فجعل يجالد تلك الامواج الثائرة، ويصارع ذلك الجبار العتيد، حتى اذا نزح التعب قواه، طواه

البحر في جوفهِ طي السرّ في الفؤاد، ذلكم مثـل البائس في هذه الحياة الدنيا

أما ذلك المجتمع الانساني فمثله كالسفين أخذت في ذلك الخضم مجراها ، فانحطت عليها الاعاصير واصطلحت عليها الانواء ، وألقت بها في تلك اللجج التي تضل فيها الظنون والاوهام سبيل النجاة، يدنو منها القضاء فيفرق، ويسبح فيها الخيال فيغرق، اذا تدجت فهي ليالي الشقاء واذا ثارت فهي براكين الماء، ألقى بهذه الجارية تيار الماء والهواء، الى حيث هذا الغريق تصافحه رسل الحمام ، فجعل يدعوها اليه مرة بالنداء وأخرى بالايماء لتستل حياته من يد الاجل، وكلما صاح ذهبت بصيحته هوج الرياح أو أشار قام بينه وبينها سدٌّ من الامواج ، فهي لا تسمع نداءه ، ولا تنظر ايماءه ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين



الفصل الاول

جان ڤالجان

أشرف على مدينــة (ديني) رجل يضرب في الارض على قدميه فدخلها وقد مال ميزان[1] النهار واكتهل اليوم الاول من شهر اكتوبر سنة ١٨١٥ وكان قد ركب نعليهِ عامة يومهِ فما ادركها حتى أخذ منه الجهد وأعياه النصب وأمله طولُ الشقة[2] وحتى ملكه الجوع ونال منه الظمأُ وجمع في منظرهِ بين تعب الحياة وتعب السفر فكانت النظرة اليه تدعو الى الريبة فيه . لذلك ما نظره احد من سكان تلك المدينة الا ومرّت به خلجة شك في امره

وكان ربعةً في الرجال بادناً[3] شديد الحول يضرب لونهُ الى السمرة طويل شعر اللحية قصير شعر الرأس لقرب عهدها بالمقراض نيفت أعوامهُ على الاربعين، عليه أطمار بالية وبيده عصا وقد احتقب[4]

---

(١) مالت الشمس الى الغروب (٢) السفر الطويل

(٣) ذو البدن السمين (٤) أي حمل

خرجاً ملأه بحاجهِ ولباناته

دخلها وهو أشعث أغبر وقد انتشرت على أديم وجههِ طبقة نسجتها يدُ السفر من خيوط الشمس وطلتها بطلاء من العرق والغبار فسار فيها وقد أنكره كل من رآه وكذلك ينكر ابن السبيل وأخذ سمتهُ الى دار المشيخة فمضى[١] قدماً في احدى سبلها حتى اذا قطعها عطف يسرة وعرج على تلك الدار ولبث فيها بعض ساعة وخرج فمرّ بجندي فحياه فصعر[٢] الجندي خدهُ وتثاقل في ردّ تحيتهِ فمضى الرجل في طريقهِ ونظر الجندي يترسم[٣] مواقع أقدامهِ حتى غاب عنه سوادهُ

ولعلهُ كان قادماً من الجنوب فلقد طلع على تلك المدينة من ذلك السبيل الذي ركبهُ نابليون الاوّل قافلاً من (كان) الى (باريس) منذ سبعة أهلة وكأنهُ منذ أصبح ما تبلغ[٤] فما هو الا ان أفلت من دار المشيخة حتى تيم النزل فلما بلغهُ دلف[٥] الى حيث يطبخ فألفى رب النزل هناك فسأله رب النزل وقد أحس بقدومهِ وان لم يمد اليهِ بصرهُ ما سؤل الطارق، فقال الرجل أكلة ونومة قال لك سؤلك ثم التفت اليهِ فما كاد يأخذهُ نظره حتى أخذهُ الشك فيهِ فعطف

(١) أي سار الى الامام (٢) شمخ بانفه وتكبر (٣) ترسم الاثر اقتفاه (٤) تبلغ أكلَ الخبز (٥) دلف مشى

قائلاً أو تصل يدك الى وفاء حق ماتطلب فضرب الرجل بيدهِ الى جيبه وأخرج كيساً فهزهُ حتى اسمعهُ وسوسة[١] ما بداخلهِ وجلس الى النار يصطليها وقد كان مقروراً[٢] وولى ظهرهُ الباب وجعل رب النزل يخالسهُ النظر في الجيئة والذهوب والرجل غافل عنهُ ينكت الارض بعود في يدهِ حتى كاد يأتي عليهِ[٣] الجوع فصاح بصاحبهِ أما آن ان آكل وليس هنا من هو أحوج مني الى الطعام وما لي بدٌّ من تناول ما أمسك بهِ النفس فقال لهُ رب النزل اني ليحزنني ان تنصرف عنهُ وأنت طاوٍ فلقد سبقك الى شراء ما ترى قوم نزلوا بنا منذ اليوم وما منهم الا من هو أحرص منك على الطعام فقال الرجل لن أبرح الارض أو أصيب ما اتبلغ بهِ فلقد سايرت الشمس من شروقها الى غروبها وقضيت يومي طاوياً وما بلغت هذا المكان حتى أدمى السير قدميّ ومن العجز أن أبتغي عنهُ حولا فقال لهُ صاحبهُ وهو يحاورهُ لقد بالغت في محاسنتك كي لا أجبهك[٤] بالرد وكرهت ان أجمع عليك بين مرارة الجوع وغضاضة المنع فأبيت الا الاصرار فاغرب عني أيها الرجل ولا تلحف[٥] في السؤال فأنا أعلم بك منك ولو شئت لزدتك

(١) يقال وسوسة الحلي ووسوسة الدراهم صوتها (٢) المقرور الذي اصابه القرّ وهو البرد (٣) اتى عليــه اي اهلكه (٤) جبههُ بالرد واجههُ به (٥) ألحف في السؤال اي ألحّ

فلقد زهدني فيك ما اقرأ عنك في تلك الرقعة التي تراها بيدي صاحبها لا تغيب عنهُ وساوس صدرك وانك لقريب العهد بهِ ذلك رب الدار التي عرجت عليها حين احلّتك المدينة فاذهب غير معقب وحسبك ما سمعت يا (چان ڤالجان) فعالج الرجل الكلام فاستعصى عليهِ لفرط الدهش فأهوى بيــدهِ الى متاعهِ فاحتملهُ وخرج يتعثر في ذيل الخيبة وركب الطريق الاكبر ومضى على وجههِ يقتاده القضاء والقدر

ولو أنه نظر وراءه لرأى بباب النزل قوماً تكاد تنهبه أبصارهم وما منهم الا من قاف[1] اثره بنظرة من الشك ولكن الرجل لم يلتفت فقلما يسكن البائس الحزين الى تلك اللفتة التي تريه النحس على عقبيهِ فواصل السير وقد أنساه طريف الحزن تالد التعب ولكنه ما لبث ان تنبه فيه هاجع الجوع فاشفق ان يدهمه الظلام قبل ان يبلغ مكاناً يعصمه من القرة[2] ويذود عنه الطوى فما زال يتيامن ويتياسر حتى لح ضوءًا فقصده فاذا هو على باب نزل حقير فوقف أمامه وهو يكبره الجوع يدفعه والخوف يمنعه حتى صحت عزيمته على الولوج فلما صار بصحن الدار وبصر به ربها صاح من الطارق فقال الرجل عابر يطلب قوتاً وسكنا ودخل حيث يسمع الصوت فوجد قوماً جلوساً

(١) قاف بمعنى اقتفى (٢) القرّة البرد

ينتظرون نضج الطعام وشم ريح القتار فكادت تثب احشاؤه الى القدر فقال له صاحبه دونك النار فاصطل ريثما ينضج الطعام فانتحى ناحيتها وجلس اليها ومد أمامها قدمين ادماهما التعب

وما كاد يحتويه هذا المكان حتى احتوى الشك من فيه فقد نظروا رجلاً ترتسم على وجهه آلام الحياة مطرقاً حزيناً اذا امررت عليه النظر امراراً رأيت فيه سهولة السطيع واذا أدمنته فيه تبينت فيه الجفاء

وكان بين اولئك الجلوس رجل قد بصر به ضحوة النهار وقد ركب الطريق بين (براسكاس واسكابلون) فرابه أمره حين دنا منه وهو فارس فطلب اليه ذلك البائس ان يردفه لينفس عنه كرب السير فكان جوابه ان استحث جواده هرباً من شرّ تلك الطلعة وقد أراد الله ان يكون ذلك الفارس بين اولئك القوم الذين كانوا بباب النزل الاوّل وقوفاً يشيعون ذلك الطريد بنظرات تقعد همة الفوتوغرافيا تصوير ما فيها من الاستخفاف والازدراء وبين أولئك الجلوس الذين رابهم أمره في النزل الثاني فأومأ الى رب النزل فلما دنا منه همس في أذنه بكلمات ملأته نفوراً من ذلك القادم فانفتل اليه وقال له ما كان اخلقك بالتحوّل عن هذا المكان فأجابه الرجل أو قد علمت بحادثة ذلك النزل قال نعم وسنشفعها بأختها فاستقبل الرجل الباب

ولما صار بالطريق اذا هو بصبية يرجمونه بالمدر وقد تعقبوه منذ هبط المدينة فخشي ان يصيبه عنت منهم ان هو تغافل عنهم فأشار اليهم بعصاه يوهمهم بالأذى فنفروا عنه نفور القطا فانطلق حتى اذا صار أمام السجن خطر له ان يأوي اليه ليلته وقال لن أجمع على نفسي بين الجوع والسهاد ولقد أراني الى الراحة أجوع مني الى الطعام وهذا جوٌ خليق ان يهلكني قره ولن أعدم ان أجد في هذا السجن مكاناً يعصمني منه

فلما تمكن منه هذا الخاطر طرق الباب فقال السجان من الطارق قال غريب لا مندوحة لهُ عن الالتجاء الى السجن قال ومتى كان السجن داراً للضيافة فان كنت أمسيت وقد أعياك الامر فهذا باب اقتراف الجرائم لا يزال مفتوحاً وهو لا يلبث ان ولجت فيهِ ان يقتادك الى هنا فانصرف الرجل مخذولاً وليس وراء ما بهِ من البؤس غاية وتغلغل في المدينة فمرّ في طريق ضيق على عطفيه حديقتان عليهما سياج وفي وسط احداهما دار صغيرة تعلو الارض بطبقة باحدى نوافذها سراج يضيء الليل فما هو الا أن رآهُ حتى أسرع اليهِ فلما بلغهُ نظر من تلك النافذة فاذا رب الدار بين زوجهِ وولدهِ وهو أهنأ ما يكون بالاً فقال استضيفهم فلعلي ان اصادف منهم جانباً رحيماً ثم خفض من جزعه ونقر بأصبعهِ على زجاج النافذة نقرة الجبان

فلم يسر اليهم الصوت فخلع عن منكبيهِ رداء الفزع ونقر نقرة مطمئنة فقالت المرأة لزوجها كأني أسمع نقرًا على زجاج النافذة فتسمعا جميعاً فسرى اليهما الصوت فقام الرجل الى السراج فحمله واستقبل الباب ففتحه فأخذ بصره رجلاً تذعر منه الا بالسة فقال رب الدار من الذي أرى قال غريب يستضيفك ولك الحكم في الأجر فقال له وقد دب الشك فيه إن كنت ذا مال كما تزعم فهذه الفنادق فما منعك ان تغشاها قال غشيتها فلم أجد فيها مكاناً فقال له وقد تملكه الشك ان ما تقول لشبيه بالباطل وليس هذا بأبان المواسم واني لأرى رجلاً غير ميمون الطلعة ولقد راعني منك ما يروع المرء من قاتله وكأني أسمع صوتاً يقطر منه الدم وأكبر ظني انك ذلك الرجل فقال له لا تعجل في الحكم على ما ليس لك به من علم فهل انا الا ابن سبيل قطعت في يومي اثني عشر فرسخاً وقد اجهدني الكد وأنصب بدني التعب وأخذ مني الطوى فهل لك في ان تسعفني بكسرة من الزاد ولك أجر المحسنين فان لم تفعل فشربة من الماء فقال بل شربة من حميم وأغلق في وجهه الباب فوقف الرجل وقد كاد يأتي عليه اليأس لولا ان بصر في ضوء الشفق بشيء شبيه بالكوخ في وسط الحديقة المجاورة لذلك البيت فقال ما لهذا الكوخ بدٌّ من ساكن ولكني آتيه

فلعلي أجده خالياً فأفني فيه دولة الظلام واستجن[١] فيه من ذلك البلاء المتساقط فقصده فاذا هو وجار[٢] لكلب وقد غاب عنه صاحبهُ فانبطح فيه الرجل على وجههِ واستحالت عليه الحركة لضيق المكان وكان متاعهُ لا يزال على ظهره ولم تقوَ يدهُ على ازالته لفرط ما نالهُ من الاين والنصب . فلبث قطعاً من الليل وليس بهِ حراك حتى اذا أملهُ حملُ ماعلى ظهره عمد الى نزعه فأخذ يعالجه بيده ، وانه ليفعل ذلك اذ فاجأهُ رب الوجار . فتسلل الرجل من مكانه وغادره لذلك القادم وأشفق ان يثير غضبهُ بتثاقلهِ عن الخروج فينشب فيهِ انيابهُ وهو في ذلك المضيق لا يسطيع دفعاً عن نفسه وخرج من البستان وهو أشد ما يكون جزعاً من الحياة شريداً طريداً يطويه البرد وينشره الطوى ، تعذر عليه حتى الوصول الى السجون وعزّت عليه حتى مراقد الكلاب

فلما صار في الطريق قال لقد قصدت الفنادق فذادوني عنها فالتجأت الى السجن فكذاك فاستضفت الناس فكذاك ولقد زهدت فيّ حتى الكلاب فليس لي الا التحوُّل عن هذه المدينة

ثم سار مقنع الرأس كاسف البال واستقبل الفضاء وكان ليلهُ بهيماً ضرير النجم شديد القرّ ساقط النواحي متهم الصباح فانطلق حتى

(١) استجن أي استتر (٢) الوجار الحجر

اذا بلغ مزرعة حديثة العهد بالحصد رفع رأسهُ ومدَّ بصرهُ فاذا ظلمات يقصر فيها قاب العين ، وقد زاد في ظلام الليل ما تلبد في سمائه من تلك السحب الكثيفة فكانت السماء أشد ظلمة من الارض . فانقلب الرجل على عقبيه وأمَّ المدينة وكانت ذات سور وأبواب فرأى الابواب وقد أغلقت . فحاول التسوّر فأعياهُ الامر . فما زال يطوف بالسور حتى عثر على ثغرةٍ فيه فانحدر منها الى المدينة ومضى على وجهه ترامي به الطرقات وتقاذف به الازقة حتى مرَّ ببيعة فوجد على بابها مقعداً من الحجر فسقط عليه ولا يعي من فرط التعب واضطجع فيه وما كاد يحتويه ذلك المضجع حتى خرجت من تلك البيعة امرأة صالحة فقالت له وقد رأته ممدداً كالجذع : ما خطبك أيها النائم فقال لها وهل يدعو ما أنا فيه الى السؤال ألاَ ترين أني أنام فقالت له وقد أخذتها رأفة عليه أتفترش الصخر ؟ قال مرَّ بي تسعة عشر حولاً ولا أفترش غير الاخشاب وأنا الليلة أفترش الصخور ولولا أنني صفر اليدين لاكتريت لي مكاناً على أنني طرقت الابواب فلم أظفر بكريم فقالت له ألا أدلك على بيت ما طرقه قبلك طارق وجبهَ بالردّ وأشارت له الى بيت صغير على كثب منه فأخذ الرجل سمته اليه

وكان هذا البيت لعابد بمدينة (ديني) وقد أفرد لهُ المؤلف

في صدر الكتاب باباً قصره على ذكره ومناقبه ، ومبلغ ما فيهِ ان الرجل مسماح كريم عفيف الازار طاهر المهد سريرته في بياض صحيفته فعال للخير مناع للشرّ وكان يقطن هذا البيت مع أخت لهُ على خلق كريم وهي امرأة نَصف لا عُجوز شمطاء ولا فتاة هيفاء وكانت لهما خادم من ذوات الاسنان تعد من العمر ستين عاماً

وبينا كان الرجل آخذاً طريقه الى ذلك البيت كانت الخادم تحدث مولاتها

لقد هبط المدينة رجل مريب ما رآه أحد الا وذعر من رؤيته وقد مشى بحديثه الكبير والصغير فورد الاندية وولج الأخبية وأجمع الناس على وجوب التحرز منه حين نظروا في وجههِ سيما الفتك والشرور فلا ينجلي هذا الليل الا عن حادث جلل وها هو يطوف تحت راية الليل في الازقة والطرقات حتى اذا عنَّ له صيد أو آنس من أحد غرة وثب عليه فسلبه نفسه ومتاعه ولا آمن ونحن في هذا البيت ان يصول علينا ذلك الذئب صولته ولا أظن تهاون العسس في الامور الى هذا الحد الا لما أمسكه حاكم البلد في نفسه من الضغينة على رئيس الشرطة وما وقره رئيس الشرطة في صدره من الموجدة على ذلك الحاكم يحاول كلاهما القاء تبعة الحوادث على صاحبه ولقد وجب على كل من له مسكة من العقل ان يقيم من نفسه حارساً على

نفسه حتى تنحسر فترة الشقاق بينهما وانا غادية الى السوق لشراء مذلاج[١] لهذا الباب وداعية أحد النجارين لاصلاح عضادته وانها لتحدثها كذلك اذ دخل سيدها وقد الم بطرف من الحديث فنظر اليها نظرة المستطلع وسألها سؤال المستخبر لقد وعيت طرفاً من حديثك فما عسى ان تكون تلك النازلة التي توشك ان تحل بنا فاندفعت الخادم تحدث ،ولاها بما تعلمه من أمر ذلك الرجل وكلما آنست منه ارتياحاً الى سماع حديثها تغلغلت في الاغراق واسترسلت في المغالاة وقالت ولقدعوّد مولاي طراقه على الدخول في هذا البيت قبل الاستئذان وقد علموا منه ذلك فهم يغشونه بالليل والنهار ولا يكلفهم ذلك غير دفع هذا الباب وما كادت تنتهي من مغالاتها حتى سمعوا طرقاً فقال العابد أتيت أهلاً أيها الطارق فاندفع الباب بعنف ولاح رجل على عتبة الدار وأخذ يخطو الى صحنها بقدم مطمئنة وصدر لا يبرحه القلب وان عهدنا بهذا القادم لقريب فما هو الا ان تراءى حتى كاد يقطع نياط قلب الخادم من الهلع فهمت بالصياح فخانها الصوت فلبثت فاغرة الفم غائبة الرشد أما الأخت فقد حفز الخوف احشاءها حفزاً فنظرت الى أخيها فاذا هو مثلوج الصدر جليد القلب رابط الجأش طلق المحيا فثاب اليها رشدها وعاودها السكون

(١) المذلاج الترباس عند العامة

ومرت كأن لم تكن تلك الجازعة الهلوع ، وأما ذلك الرجل فقد وقف في صحن الدار وأنشأ يقول :

انني مجرم طويت في السجن رداء شبابي وسلخت فيهِ مئة وثمانين شهرًا حتى استوفيت عمر العقاب ولم تشرق على شمس الحرّية الاّ منذ أيام أربعة فهبطت تلك المدينة وقد شمر النهار فقصدت الفنادق فحالت بيني وبينها تلك الورقة الصفراء التي يحملها حديث العهد بمغادرة السجون فطرقت الابواب فلم أصادف رجلاً كريمًا ولا قلبًا رحيماً فقلت آوى الى السجن فأنا أقرب الناس عهدًا بهِ فنهرني السجان فدلفت الى وجار كلب فطاردني حتى طردني فقلت انطلق الى الفضاء فأنام تحت حراسة النجوم فتقنعت بالسحاب وكأنها عافت النظر الى تلك الطلعة المنحوسة وأشفقت من سقوط المطر فعدت معقبًا الى المدينة ولم أصب من رحمة في الارض ولا في السما فحالت بيني وبينها الابواب حين بلغتها فما زلت أطوف بالسور حتى ظفرت بصدع فيهِ فانحدرت منهُ الى المدينة وهمت على وجهي في الطرقات حتى مررت ببيعة فاذا على بابها مقعد من الحجر فانطرحت عليهِ واني لكذلك اذ مرت بي امرأة من الصالحات فنفضت اليها جملة الحال فأرشدتني الى تلك الدار وهاأنذا قد بلغتها ولقد عودني الشقاء على أن اجتزئ بالشربة واكتفي بالكسرة فهل أنا مصيب عندكم ما أمسك

بهِ النفس فلقد ظللت يومي طاوياً وقطعت اثنى عشر فرسخاً وأنا راكب هذين النعلين فان فعلتم وما أظنكم تفعلون فلكم ما تشاؤون من الاجر فاني على الدفع قدير

فنظر العابد الى الخادم وقال لها هيئي لهُ مكاناً على المائدة ثم أخذ يحد البصر الى ذلك الرجل كمن يحاول ان يستشف ما في قرارة نفسه فمضى الرجل قدماً حتي اقترب من السراج وضرب بيدهِ الى جيبهِ فانتزع منهُ تلك الورقة الصفراء (اجازة الاطلاق) وكأنه لم يصدق أذنه لقرب عهدها بسماع غير الذي سمعت فالتفت الى العابد وقال له دونك الورقة التي ما صحبتني الى مكان الا وسبقني النحس اليهِ واني لاتلو عليك ما فيها فقد تعلمت القراءة في مدرسة السجن وأخذ يتلوها

ان چان ڤالجان مجرم أطلق سراحهُ بعد أن لبث في السجن تسعة عشر حولاً قضى خمسة منها قصاصاً على السرقة وقطع الباقي جزاء معالجتهِ الفرار من السجن مراراً وانه لفتاك جسور

لذلك تراني ما حللت في مكان الا وأنكرني من فيه وأوجس خيفةً مني فياليت شعري أكذلك تكون معي أم انت من المحسنين

فنظر العابد الى الخادم وقال لها ومهدي لي سريراً ، وخاطب الرجل قائلاً نزلت رحباً فاجلس الى هذه النار واصطلِ وما هي الا

لحظة حتى يحضر الطعام فاذا فرغت من تناولهِ اخذتَ مضجعك في ذلك السرير . فصدق الرجل في هذه المرة أذنيهِ وأشرقت اساريرُ وجههِ وسرّى عنه ما كان فيه من الغم وخرج به فرط السرور الى الهذيان فجعل يقول : أسرير وحشية وغطاء وما لجنبيّ عهد بها منذ تسعة عشر حولاً ولقد كان قائمًا بنفسي أن لا ارى منك غير الذي رأيت من اصحاب الفنادق فما بالك تبالغ في محاسنتي كأني بعض بني الانسان . ولقد كنت انهر الساعة كما تنهر الكلاب فما أرق شمائلك أيها الرجل فتالله لأُضاعفنَّ لك الاجر . فيا ترى ما اسم هذا النزل وكم ينبغي أن أدفع ؟ فقال العابد ان البيت الذي يؤويك لم يكن بنزل كما تزعم ولكنه بيت ذلك الذي يخاطبك . فقال الرجل : لقد خيم الحزن على بصري فلم ألمح شارتك التي تحملها ولعلك عابد بتلك البيعة القريبة فلا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من امري عسرًا ، فانت حقيق بمواساة البؤساء

ثم رد الرجل ورقته الصفراء الى جيبه وألقى على الارض متاعهُ وأسند الى الحائط عصاه وانتحى ناحية النار وجعل يقول : ولا اخالك تكلفني على ذلك اجرًا . فاجابه صاحبهُ وهو يحاوره لا بل فاحفظ عليك دراهمك فلسنا في حاجة الى شيء منها

وكره العابد الخوض معه في مثل هذا الحديث فحوّل مجراه

قائلا : ولعلك يا سيدي مقرور فان ليلتنا باردة الهواء فتمشى السرور في قلب الرجل حينما استأذنت تلك الكلمة على سمعهِ وتنزهت لها روحهُ من داخل الجسد وأصابت منه تلك اللفظة (سيدي) مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

ولا يزال المصاب في شرفهِ على ظمإٍ الى نهلة من موارد الاحترام حتى اذا ظفر بها اصبح مبرود الغليل

وانتقل العابد من حديثهِ الى مخاطبة الخادم فقال أرى سراجنا مريض الفتيلة ضئيل النور فألمت بقصدهِ وأسرعت الى مخدع نومهِ وعادت تحمل شمعدانين من فضة ووضعتهما على المائدة

فقال الرجل للعابد لقد اكرمتني الكرامة كلها وحادثتني محادثة القرين وجاست معي على بساط المساواة على اني لم اكتمك شيئاً من أمري وعندي ان ما فعلت معي لكثير على مثلي فقال العابد لم تكن الدار بداري ولكنها دار للمسيح ولا يسأل هذا الباب داخله كائناً من كان عن اسمه ولكن يسألهُ عن ألمهِ وأنت رجل قد أضرّ بك الألم ونال منك الجوع والظماء فالتجأت الى تلك الدار وليس لي في ذاك من فضل وانما الفضل لله فهيا الى المائدة فقد حضر الطعام فأخذ الرجل عليها مجلسهُ وجلس اليهِ العابد يؤاكلهُ ويؤانسه حتى فرغ من أكلهِ وحانت ساعة الانصراف الى النوم فأخذ بيدهِ الى المضجع

الذي هيأهُ لهُ ومرّ في طريقهِ على حجرة العابد فنظر فيها نظرة ألمت بجميع ما بداخلها وحين بلغ بهِ ربّ الدار مضجعه حياهُ وهمّ بالانصراف فتعلق بهِ الرجل وزمجر في وجههِ بعينين نمّ انسانا هما عما كان يخفيهِ في قرارة نفسهِ من الغدر فقال له وقد شبك ذراعيهِ ووقف أمامهُ وقفة تمشي لها القلوب في الصدور وما يؤمنك ان لا أنالك بسوء وقد جعلتني بحيث لا يحول بيني وبين الفتك بك حائل فأجابهُ العابد ومتى أغنى الحذر عن المرء شيئاً وهذا أمر قد فرغ الله منهُ

ثم غادرهُ وانكفأ الى مخدعه ولم يلتفت اليهِ وبعد ان قضى فيهِ صلاتهُ تحوّل عنهُ الى البستان وأخذ يطوف في نواحيهِ وهو يتأمل في تفلك الفلك وقدرة الصانع ويطلق الفكر في تلك الاشياء المستسرة في ضمير الدجى

أما الرجل فما صدق ان يتواري عنه حتي أهوى الى السراج فاطفأه وانطرح على ذلك السرير وليس به حراك وغط في نومه وما كاد ينصرم من عمر الليل نصفه حتي انقلب العابد الى مخدعه وأخذ مضجعه فيه ونام ولم تبقَ في هذه الدار عين ولم يأخذ النوم بمعاقد أجفانها ولما اكتهل الليل أو كاد تيقظ الضيف من نومه وقد آن أن نسطر للقراء تاريخ ذلك الرجل

كان چان ڤالجان من أسرة رقيقة الحال تعمل في الارض بيلدة (بري) وكان أبوه يشذب الشجر ولم تكن له حرفة سواها فتربى هذا البائس في مهد الجهل فلم يجلس الى مؤدب ولا معلم ولم يرتضع بلبان العلوم والمعارف فمر فدماً جهولاً ولما يفع ورث عن أبيه تلك الحرفة وكان طويل التفكر عن غير حزن وفقد أبويه وهو صغير فماتت أمه محمومة ومات على أثرها أبوه هوى من رأس شجرة كان يشذبها فدق عنقه فاحتضنته أخته وكان لها سبعة من البنين والبنات فلم يزل مكفي المؤونة عندها حتى مات زوجها وليس بين ولدها كاسب واكبرهم يومئذ في الثامنة من عمره فلم يرَ چان ڤالجان بداً من القيام بمعاش أخته وأولادها فجعل يعمل لبطنه وبطونهم ويكدح في طلب الرزق وأجره في أيام موسم حرفته لا يزيد على ثمانية عشر صلدياً فاذا أنقضت تلك الايام انطلق الى جماعة الحصادين في المزارع فأصاب رزقاً له ولاهل بيته وما زال يكافح الايام ويناضل البؤوس وهو لا تصل يده الا الى ما تدعو اليه الحاجة لحفظ الحياة حتى نزلت بهم سنة من السنين حبس شتاؤها الناس عن الخروج في طلب وجوه الرزق فأملق الرجل أملاقاً شديداً ونزلت به الضائقة وحضره العوز فأمسوا ذات ليلة ولم يجدوا ما به يتبلغون فصاحت تلك السبعة الاطفال من ألم الجوع والتصقت بطونهم بالظهور من فرط الطوى فكبر الامر على

چان ڤالجان وغادر الدار وخرج هائماً على وجهه يطلب لهم ما يقتاتون به فمر بخباز قد أغلق حانوته وتهيأ للنوم في مخدع له بداخلها وكان بابها من زجاج وخلفه حواجز من الحديد ينفذ من اثنائها الساعد فوقف أمامه ونظر من زجاج الباب فاذا رغفان الخبز على قيد ذراع منه وذكر أمر الغلمة فساقه قائد الاضطرار الى ارتكاب جريمة السرقة لاجل ان ينتزعهم من مخالب الجوع فصدع الزجاج بقبضتهِ وأهوى بيدهِ الى الخبز وانه ليحاول اختلاسه اذ أدركه الخباز وقد تنبه من نومهِ مذعوراً على دوي تلك الصدمة فتخبل الرجل في أمره وطرح الخبز وأخذ يعدو طلباً للنجاة وطفق يعدو والخباز على أعقابه حتى لحق بهِ وتعلق بأثوابهِ وقد خدشه الزجاج في يده وساعده خدوشاً كانت هي الشهود على جريرته فسيق الى المحاكمة وكان كلفاً بالصيد في الغابات مدمناً لحمل بارودته فلما قبضوا عليهِ وكان محتقباً لها شبه لهم انه بعض خطفة الصيادين وهم قوم قد مقتهم الشعب لوهم ديني رسخ في عقيدته فهو يلحقهم بقطاع السبيل لذلك وفوا هذا البائس قسطه من الأذى وزجوا بهِ في السجن خمس سنين

وفي اليوم الذي نودي فيه بنصر ديمونتبوت كان چان ڤالجان يرسف في قيودهِ وقد سلكوه مع رفقة له في سلسلة طويلة الذرع وساروا به الى سجن تولون وقلبه يقطر حزناً على حال هؤلاء الذين

خلفهم بعده لا ترعاهم عين ولا تواسيهم يد . ولما وصل الى السجن ألبسوه ملابس المجرمين ولم يبق له اثر من ماضيه حتى اسمه فقد محته يد الشقاء وأصبح لا يدعى بغير نمرة ٢٤٦٠١

ولا يعلم الا الله ما الذي حل بعده بتلك الارملة واولادها وقد خلفهم على مدرجة من سيول الحوادث يعبث الجوع باجشائهم ويلعب اليأس بارواحهم وليس لهم من معين ولا نصير وقد ركب كل منهم رأسهُ وهام على وجههِ من فرط الجوع وتغلغل في ظلمات هذا الوجود ولحق بمن ابتلعتهم تلك الظلمات من البؤساء وتشتتوا في البلاد وجرَّ عليهم الدهر ذيل النسيان فنسيهم حتى ذلك السجين في سجنهِ أنساه اياهم كرُّ الغداة ومرُّ العشيّ وتتابع البلاء وتوالي الشقاء ولم يجرِ على لسانه ذكر اختهِ في ايام بؤسهِ وما ذكرها غير مرةٍ وقد نقل اليه بعضهم طرفًا من خبرها بعد أن لبث في السجن بضع سنين لا يعلم من امرها : نقل اليه انه رآها بمدينة باريس تساكن البؤس في دار ولم يبق لها من اولادها غير واحد وقد انقطعت الى العمل في احدى المطابع فنظرها وهي مبكرة اليها وفي يدها ولدها وقد بلغ الرابعة من عمره وكانت في دار المطبعة مدرسة للاطفال فادخلت فيها ذلك اليتيم فهي تغدو به كل يوم اليها وتتركه في فناء الدار حتى تحين ساعة الدرس ، وكانت تنطلق لمزاولة العمل

في المطبعة قبل هذا الحين بساعة ، فيلبث ذلك اليتيم في فناء الدار وحيداً فينزوي في ركن من اركانها وينكمش تحت ذيل الانكسار وطالما شاهده من مرَّ بهِ وهو يقضقض من البرد وفي عينيه كسل الكرى وقد تأخذ حارس الباب الشفقة عليه فيدعوه الى كنهِ حتى يفتح باب المدرسة

هذه هي المرة التي سمع فيها بذكر أختهِ وآلمته ذكرى تلك الانفس التي كان يحبها ولكنه ما لبث أن عاد الى حاله من النسيان فقد كان في قلبه جرح لفراقهم وقد اندمل ذلك الجرح لطول العهد واشتغاله بما هو فيه من العذاب والشقاء

وما كاد يطوى اجل السنة الرابعة حتى وقف عليهِ الدور في الهروب فأفلت من السجن وقد أعانه رفاقه على ذلك وكانوا قد تمالئوا فيما بينهم على الفرار بالتعاقب ، ولما ظن نفسه ناجياً لبث يومين هائماً في فضاء تلك الحرية الموهومة لا يهتدي الى سبيل

ولم يستمرئ ذلك البائس لذة الاطلاق والحرية . ومتى كان حرًّا من بات مقلقل الشخص ، مروَّع العين ، منزعج الضمير ، طاوي الحشا ، يفرق من الفيء ، ويفزع من لا شيء ، يخيفه الليلُ تسطو غياهبه فتنسج على بصره غشاوة تمنعه عن التحرز من الوقوع فيما عساه ان يكون قد مدَّ له من الشراك ، ويزعجه النهارُ يغري به الرقباء

ويهدي اليه العيون ، فهو ما مرَّ به طير الا وفزع ، ولا نبحه كلب الا وجزع ، ولا دقت ساعة ولم يدق لها قلبه ، ولا لاح شبح ولم يطر له لبه ، فاذا أغفى سلت عليه سيوفها الاحلام ، واذا تيقظ راشت اليه سهامها الاوهام .

فما زال يذوب فرَقاً بين تلك الهواجس والوساوس حتى سلمه ظلام الليل الى ظلام السجون غرثان ظمآن لم يصب في يوميه كسرة من الخبز ولا شربة من الماء وقد امتدت اعوام سجنه الى ثمانية بعد خمسة فدخل السجن وثوب شقائه قشيب جديد بعد أن كان خلقاً رديماً وقد كان غادره ولم تبق له فيه الا سنة واحدة وعاد اليه وقد ولدت له تلك السنة ثلاثاً

وما زال يعالج الهروب فلا يسرّح الفرصة اذا عرضت ولا يحجم عن الدور اذا آن وهو كلما ظنَّ أنه ناجٍ أدركه عثار الجد فردهُ الى السجن ومدَّ في اجل بقائه فيه حتى قطع على تلك الحال تسعة عشر حولاً

وخرج من السجن وهو لمعول الحوادث صفا صلدٌ لا تنال منه النوائب ولا تأخذ منه الآلام بعد أن كان ذلك الرعديد الهلوع .
دخل فيه وهو بادي البأس جزوع ، وخرج منه وهو كظيم

وما كان چان ڤالجان خبيثاً ولكنه كان فدماً جهولاً على انه

ما لبث أن تلقى في مدرسة الدهر العليا دروساً ألحقته بمصاف الحكماء قام بتهذيبه فيها اساتذة الايام والليالي فعلمه القيد السكون ، وعلمته الاغلال الصبر كيف يكون ، وأرشده قرعُ العصا الى الاستقامة ، وسقاه التعب والنصب مرارة الندامة ، وانتزعت مضاجع الخشب من جنبيه ذلك الطمع ، وصهرت حرارة الشمس ما كان في نفسه من الجشع .

فجلس الى نفسه يحاسبها ، وجرّد من نفسه حكماً على نفسه ، وجعل ينظر الى ماضيه نظرة الحكيم العاقل ، الى ضلالة الاحمق الجاهل ، فعلم أنه أتى امرًا نكرا ، وأن ما نابه من القصاص لخليق أن يحل به . وقال في نفسه لقد كانت لي مندوحة عن السرقة فلو اني سألت الناس هذا الخبز لما أبوا عليّ اعطاءه ، ولو اني اخذت بالاناة في الامر لوجدت لي منصرفًا عن ارتكاب هذا العار إما بالسؤال وان كان ذلاً ، واما بالعمل وان كان عزيزًا ، ولكني تعجلت وكان الاخلق بي أن أعتصم بحبل الصبر

فمن النزر أن يموت المرء جوعًا على انه ما خلق الا ليعيش بين السعادة والشقاء فان كان نصيبه في الحياة الالم كان حقيقًا باحتماله وان عظم فما كل ألم يكون للموت رائدا

فلقد عققت نفسي وعققت تلك الارملة وأولادها وحاولت

الفرار من وجه البؤس فواجهت العار واني وان زلت بي القدم فلست بأول الخاطئين فهذا سبيل كل مضطرّ عديم

ولا ازال أرى انهم نظروا الى هذا الجرم من غير وجهه فأكبروا الفعل وأفرطوا في العقاب واخذوا جانب شريعتهم في القصاص ولم يأخذوا جانب المجرم في الرحمة ونظروا في ميزان حكمهم الى كفة الجزاء ولم ينظروا في كفة العفو عند التوبة

فلسوف يسألون عن تلك الحظوظ التي رموا بها في مجرى النحوس وتلك الانفس التي ألقوا بها في يد البؤس والشقاء

واني لا ارى مقارنة بين الضرر الذي لحق بصاحب الخبز وبين الضرر الذي نزل بي من وراء ذلك الحكم فانه وان لم يأت من طريق الظلم فقد جاء من طريق القسوة والافراط

وكان چان ڤالجان يحاكم نفسه وهو واجد على تلك الهيئة الحاكمة وقد أخرجه حنقه عن حد الرشد ولقد يكون الحنق جنونًا

وما ظنك ايها القارئ برجل لم يصب من ذلك المجتمع الانساني خيرًا ولم يأنس منه غير هذا الوجه العبوس الذي كان يكمن في اثنائه ذلك العدل الموهوم ، فهو ما دنا منه دانٍ الا ليدني اليه أذاه ، ولا مسه انسان الا ليمسه منه الضر ولا طرقت أذنه بعد موت أبويه كلمة تستروح منها روائح الرفق ولا وقع عليه نظر تمازجه الرحمة

فما زالت تهادي به الخطوب وتقاذف به الآلام وهو يتململ على سيال البلوى حتى أيقن ان الحياة حرب وانه وحده هو المهزوم فيها وأن ليس له ما يعتد به من السلاح غير ما أمسكه في نفسه من الحقد على العالم بأسره فهو سلاحه الذي أعده لمناواة الايام ومنازلة الانام وكان يشحذه في أيام سجنه و يبالغ في الحرص عليه وقد رأى ان قوة ذلك السلاح لا تكون الا في قوّة الذكاء فعمد الى الدخول في مدرسة السجن وقد تفتق العلوم بعض الاذهان الى استنباط وسائل الاذى وطرق الانتقام

وبعد ان فرغ من الحكم على نفسهِ وعلى العالم بأسره انتقل الى الحكم على تلك القوّة التي دفعت هذا العالم الى فعل الشرّ وكان بقاؤه في السجن تلك المدة الطويلة وهو يرزح تحت أثقال الهموم يسمو بنفسهِ آنًا الى السماء ويهبط بها آنًا الى الارض فيرى عن يمينهِ نور اليقين وعن يساره ظلام الشك ولم يكن ذلك الرجل خبيثًا عند دخولهِ الى السجن ولكنه أحسّ بسريان الخبث في نفسهِ حين جلس للحكم على هيئة العالم وشعر بدبيب الكفر في قلبهِ حين جلس للحكم على تلك القوّة السماوية

وهنا يجب ان يقف بنا التأمل برهة ونتساءل هل يدخل في باب الامكان ان يخرج الانسان من طباعه دفعة واحدة فيخالف غريزته ويناقض نحيزته ويتحوّل عن جبلته وينزع عن سجيته

وهل لبني البشر سلطان على النفوس يحوّلها عن الفطرة التي جبلت عليها فيرد منها الى الخباثة ما فطر منها على الطيبة

وهل يرتبط شقاء الحظوظ وعثار الجدود بفساد النفوس فاذا حمق حظ المرء ولج به عثار جده خبثت نفسه وساءت فعاله

وهل يخضع القلب لسلطان الحوادث خضوع الاعضاء فتدعوهُ الى الانكماش أمامها كما يدعو العبء الثقيل الظهور الى الانحناء وهل لا يوجد في نفوس البشر نور سماوي لا يذهب بسنائه الشك ولا تطمسه الضلالة فيبقى ساطعاً في تلك النفوس يلوح منه نور اليقين وتنبعث منه أشعة الهدى

تلك اسئلة يدرك الحكماء عندها الحصر ويعجز الباحث في علم الاعضاء عن الاجابة على أخيرها فلو انه نظر چان ڤالجان وهو في سجن تولون وقد وافت ساعة الراحة من عناء الاشغال فانتقل من ألم الجسم الى ألم الفكر لرأى رجلاً يقطر حزناً ويذوب كمداً يزدهيه الصمت ويغوص بهِ الفكر في بحار من التأمل . أنشبت فيه الشرائع أظفار الظلم فجعل ينظر الى العالم بعين الحقد والحرد وأخرجته المدنية عن حد الرحمة فجعل ينظر الى السماء بعين السخط

ورأى مريضاً داؤه في النفس لا في الجسد وقد عز عليه الشفاء ولوقف علمه عند حد التوجع له ولصرف نظره عن تلك القروح التي

تسكن في هذه النفس المجروحة بسهام الشرائع الجائرة

ولرأى رأي ذلك الفيلسوف (دانتي) فعمد الى محو كلمة الأمل التي رسمتها يد القدر على جباه البشر

وياليت شعري أكان يحس ذلك البائس بذلك الوجدان الذي نحس به له وهل سمت مداركه الى معرفة كنه ذلك الشقاء الذي أتيح لهُ .

ولما حانت ساعة اطلاقه من القيود ورن في أذنه قولهم له انك حرّ منذ اليوم دبت في نفسه الحياة وشعر بأشعة من الامل تمحو من ظلام ذلك اليأس الذي سكن في نفسه منذ تسعة عشر حولا ولكنه ما لبث ان عاودتهُ نزوات الالم حين علم ان اطلاقه سيكون مشفوعاً بتلك الورقة الصفراء وانقبض لتلك الجولة من الفكر وجه أمله وأيقن انه لا زال في قيد لا تصل يده الى صدعه وان هذا الحكم قد وكل به زبانية من العذاب فهو في أسر السجون مثله في تلك الحرّية الموهومة لا تزال تكلؤه عين البؤس والشقاء

وأخذ يفكر بعد ذلك في الثروة التي جمعها أيام محنته مما كان يصيبه من الاجور على عمله في السجن فظن انه اصبح رباً لثلثمائة وثلاثين غرشاً ونسي ان أيام العطلة من كل أحد وما يلتحق بها من أيام المواسم قد قرضت من رأس ما له ستة وتسعين غرشاً فلم يطرح

من حسابه ذلك القدر العظيم ولا تسل عما حل بنفسهِ من الجزع حين ألم بهذا الخسار وذلك الغبن المبين

وفي اليوم التالي ليوم تسريحه من السجن مرَّ بمدينة (كراس) على معمل للزهور به قوم يعملون وكانوا في فقر الى المعونة لعدم الفسحة في الوقت وطلب سرعة الانجاز في العمل فعرض على رب المعمل نفسه فالحقه بأولئك العملة

وكان چان ڤالجان لا يعرف التعب ولا يأنف الملال فعكف يعمل بخبرة ومهارة وسأل في اثناء ذلك عن الأجر الذي يصيبه العامل في يومه فقالوا له ثلاثون صلدياً ولكن رب المعمل لم ينقده على عمله غير النصف حين علم انه يحمل تلك الورقة الصفراء

فقال چان ڤالجان في نفسه تلك هي الخطوة الاولى في سبيل هذه الحياة الجديدة ، وهذا كله ببركة تلك الورقة الصفراء . فلعنة الله على كل ذي لون أصفر غير الذهب

فاني وان كنت قد نجوت من السجون فلا أظن نفسي ناجياً من جور ذلك الحكم

هذا ما حلّ به من الغبن في مدينة كراس ولم ينس القارئ ما أصابه في مدينة ديني

ولما كان السحر تيقظ الضيف من نومه ايقظه لين الفراش ونعومة

الملمس وقطع عليهِ غرارهُ ذلك السرير الذي لم يكن لهُ بهِ عهد منذ عشرين حولاً وقد حنّ جنباه الى مضاجع الخشب واشتاق رأسهُ تلك الوسادة من القش وكان قد هجع ثلثا من الليل فسرى عنهُ التعب فهب وقد عاوده النشاط وكانت عادته ان لا يهجع الا قطعاً من الليل فلما تنبه أخذ ينظر يمنة ويسرة ثم أهوى رأسه الى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد

ومن قضى يومه بين الألم والاضطراب ثم أخذ مضجعه بعد ذلك كان النوم الى الحلول بمقلتيه أسرع منهُ الى سواه ولكنهُ اذا تيقظ فقلما يجد النوم الى عينه سبيلا

كذلك كان چان ڤالجان فقد استعصى عليهِ النوم وأدركه الأرق وانتابته الهواجس والافكار وجعل يتنقل به سيال الفكر من مكان الى مكان وقد مرت أمامه تلك الحوادث الغابرة مرور الصور المتحركة وهو كلما نزلت برأسه فكرة ادركتها على الأثر أختها فلا تفتأ تطاردها حتى تغلبها على مكانها فما زال رأسه مسرحاً لسوانح الافكار وميداناً لسوابق الاوهام حتى نزل به فكر فألقى فيه عصا التسيار وأقسم لا يبرح ارجاءه وكان مبعثه من تلك الاواني الفضية التي لمحها ذلك الشقي على مائدة العابد عند تناول العشاء ولمح الخادم وهي تضعها في أحد الاركان من مخدع نومه على مقربة من سريره

فسوَّلت له نفسه ان يذهب بها وقد قومها بضعف ما كان يملكه يومئذٍ من المال وكلما حاول ان يثني عنانه عن ركوب طريق العار أبى طمعه الا ان يقف بهِ على رأس ذلك الطريق فلبث ساعة وهو يحارب تلك العزيمة ويكافح شيطان هذه النفس الخبيثة حتى تغلب عليه الطمع وزين له الشيطان اختلاس تلك الاواني فثار من مرقدهِ وهمَّ بمزاولة ذلك العمل

ثم عاوده التردد فجلس على سريره وهو من نفسه في حرب عوان ومدَّ يده فتحسس متاعه والتمسه في الظلام فمسح عليه بيدهِ وقد كان على قيد ذراع منه ومن رآه وهو على هذه الحال في جوف تلك الحجرة تحت أستار ذلك الظلام رأى رجلاً خرج به فرط التأمل عن حدّ الشعور بما حوله وقرأ على وجههِ سطوراً من الشؤم رسمتها عليه يد الشرّ الذي كان يجول في نفسه .

ولولا ان دقت ساعة الحائط فانتشلته من قرار تلك اللجة التي نزل بهِ الى قاعها غواص الفكر للبث كذلك حتى الصباح

فثار من مكانهِ وخلع نعليهِ وكان لم يخلعهما عند النوم والتمس عصاهُ واحتقب متاعهُ وتهيأ للعمل وأخذ سمتهُ الى مخدع العابد وعلق أنفاسهِ واخرس صوت أقدامه ومشى على أطراف أصابعه حتى اذا بلغ الباب تسمع فلم يسمع شيئاً فدفعه بطرف البنان وهو أشد ما يكون

احتراساً كأنه هرة تحاول غشيان ذلك المكان فلان له الباب ودار على عقبهِ بحركة لم يسرِ الى السمع صوت لها

فلبث غير بعيد ودفعه دفعة ثانية كان فيها أشد جراءة منه في الأولى فازداد ليناً حتى فتح له طريقاً يسع مروره لولا منضدة من الخشب كانت معرضة فيه قد دعته الى طلب الزيادة في انفراجه

فألمّ چان ڤالجان بحرج الموقف ولم يرَ بداً من الاقدام فدفع الباب مرة ثالثة أشد من أختيها وكان الباب على ظماءٍ الى قطرات من الزيت فصر لتلك الصدمة صريراً دوى له في هذه الظلمة صوت جاف فاحتوته الرعدة وكادت تقف ضربات قلبه من الهلع ولبث كمن أخذته الصيحة وقد نفخ في الصور ومثل له الفزع ذلك الباب وقد تحوّل الى كلب عقور رابه سواد مقبل فجعل ينبح نبيحاً يكفي لايقاظ اهل الكهف فكيف باهل ذلك البيت وظنّ انه لا محالة هالك وخال عروقه وهي تنبض في صفحتيه مطارق تطرق الحديد وان انفاسه تصفر صفير الرياح في بطون الكهوف والمغاور وان ذلك الباب قد زلزل الارض زلزالها فزعزع اركان المنزل وان هذا الصوت النكير قد انذر الناس بالكبسة فما هو الا أن ينتبه العابد وهاتان المرأتان حتى يقع في قبضة العسس فيعيدوه سيرته الاولى

ولبث حيث كان لا يقدر على الحركة وهو كأنه بعض الانصاب

حتى سكت عنه الروع ورأى الامر أيسر ممـا كان في نفسه فمد بصره داخل الحجرة فاذا العابد يغط في نومه وأصغى بأذنيه فاذا الدار في سكون الرموس

فخفض من جزعه ودعا اليه الاقدام وخطا خطوة فاذا هو داخل الحجرة فجعل ينقل اقدامه باحتراس كراهة أن يصطدم بشيء من الاثاث وانه ليختلس الخطى اذ برز القمر من وراء غمامة كانت تغشاه ورمى جرمه على تلك الحجرة فأنارها فنظر جان ڤالجان نفسه على قيد شبر من سرير ذلك النائم

وكأن الطبيعة لم تزحزح هـذا النقاب عن وجه القمر في تلك الفترة الا لتوضح لعيون الكون عمل ذلك الجاني لعله يذكر أو يخشى فلقد كان القمر منذ زمن لا يتعدى شطر الساعة مقنعاً بغمامة سوداء وقد انجلت عنه في اللحظة التي اوشك فيها أن يعثر هذا الشقي بأعواد السرير

ومن رأى ذلك المضطجع على فراشه رأى رجلاً قد قام على رأسه حارسان من المهابة والجلال يتألق في وجهه نور اليقين ويجول في محياه ماء البشر وترتسم على وجهه آيات الرضا والقبول وتكتسي شفتاه بابتسامة الامل الفسيح ويتأرج من اردانه ريح التوكل

ولقد راع هذا الواقف جلال ذلك الموقف فجعل ينظر بعين

الاكبار الى ذلك الجسد الذي سكن فيه التقى وتلك الروح التي باتت تسبح في عالم الاسرار وتسبح في ذلك الملكوت السماوي

وكانت لله مشيئة في ذلك الراقد فقد أفاض عليه من أنوار الهدى ومنحه من آيات المهابة والجلال ما جعله مهيباً في اليقظة والمنام لذلك كان چان ڤالجان وهو مقيد في مكانهِ بقيد من الخشية ينظر اليه وقد تمشت العظة في نفسه وامتلأت عينه جمالاً وافعم صدره جلالا

ولا يعلم الا الله ما كان يمتزج بأجزاء نفسه من الانفعال وهو يدمن النظر الى ذلك الراقد الذي تنتشر على وجهه طبقة من النور السماوي تمازجها نفثة من الروح الالهي الذي أنار الله به بصيرته وأضاء سريرته فتلألأ في وجهه والوجه مرآة الضمير

وزادت بهجة البدر في بهجة ذلك النائم فكان يراه چان ڤالجان في نور فوق نور ولم يزل واقفاً في مكانه ولم يحوّل بصره عنه وما شك من رآه في أنه يتردد بين أن يهوي بعصاه الى تلك الجمجمة فيشجها أو يهوي بفمه الى تلك اليد فيقبلها

كل ذلك والعابد غارق في نوم لم تقطعه عليه تلك النظرات المريبة حتى حانت من چان ڤالجان التفاتة فرأى الصليب وهو باسط ذراعيه وكأنه يومئ الى أحدهما بالوقاية والى الثاني بالمغفرة . فأغرته تلك اللفتة الى الاسراع في العمل

فاندفع يمشي الى الامام حتى وقف عند تلك الاواني الفضية وهي في سفطها فتناوله ورجع ادراجه ومرَّ بجانب السرير بقدمٍ مطمئنة وجاشٍ رابط حتى اذا جاوز الباب انحدر الى الحديقة فألقى بالسفط على الارض بعد أن نقل الى خرجه ما كان فيه وتسوَّر الحائط ونجا بنفسه وخرج مع البازي عليه سواد

ولما توفي الليل النهار هب العابد من نومهِ وخرج يجول في حديقتهِ . وكانت تلك عادته عند كل صباح فلمح الخادم وهي تهرول اليه وتنادي أيعلم مولاي تولى الله حراسته اين سفط الاواني الفضية

فأشار العابد اليه وكان مطروحاً على مقربة منه وقال لها أليس هو هذا قالت كأنه هو ولكن أين أوانيه قال هذا مالست أدري فصاحت الخادم كان الذي خفت ان يكون فلقد فقدت تلك الاواني وأكبر ظني ان ذلك الرجل الذي غشينا بالامس هو الذي ذهب بها

ثم طفقت تجري الى حجرة الرجل وعادت على الاثر وهي تقول نعم ذهب بها فلا بورك له فيها ولاحت منها التفاتة فرأت آثار أقدامه مطبوعة على أرض البستان فجعلت تترسمها بالنظر حتى انتهت بها الى احدى زواياهُ فشاهدت آثار تسلقه على الحائط فقالت من

هنا أخذ طريقه ومن هنا ظهر الحائط

وما زالت تبدي وتعيد وسيدها صامت اللسان وما زاد على ان قال ومتى كنا نحن أصحاباً لتلك الاواني ؟ ألم تكن هي من نصيب الفقراء وقد حبسناها عنهم ؟ ولقد أصاب الرجل في فعلته فان هو الا بعضهم وقد وقف به نصيبه عليها فلا تجزعي فليس في الامر ما يدعو الى الجزع وهذه أواني القصدير أو صفحات الخزف تكفينا مؤنة الاسف على ضياعها

ثم غادرها وانكفأ الى حجرته وما كادت تحتويه حتى سمع طرقاً على الباب فقال أتيت اهلاً أيها الطارق ، فانفتح الباب وظهر على عتبة الدار ثلاثة من الرجال قد اخذوا بخناق رابع بينهم

فمدَّ العابد بصره فاذا ثلاثتهم من الجند واذا صاحبه بالامس يكاد يذوب بينهم فرقاً

فقال لصاحبهِ وقد هبت من شمائلهِ روائح الكرم : لقد نسيت عند انصرافك عنا أن تقرن هذين الشمعدانين الى تلك الاواني الفضية ، وانت تعلم أنك ربها منذ الامس . وما انساك أن تذكرها الا شيطان العجلة . فخذها فلعلك أن تصيب من ثمنها ما تصلح به من شأنك

ثم التفت الى الجند وقال لهم لقد آذيتموني في ضيفي انه خير مما

تظنون .

والتفت بعدها الى صاحبهِ فقال لهُ والبشر يجول في محياهُ : اذا شئت زيارتنا منذ اليوم فلا تجعل طريقك على البستان فان لك لمندوحة عن احتمال مشاقّ الصعود والهبوط وهذا بابنا لا يُغلق في وجه الطارق وما هي الا أن تدفع الباب حتى تكون في وسط الدار ولما تم انصراف القوم قال له لقد جعلت لي عهد الله أن تنفق ما أخذت في رياضة نفسك على البرّ والتقوى فلا تنكث مع الله عهدك فلبث الرجل مبهوتاً عند سماع ذكر ذلك العهد الذي لم يأخذ على نفسهِ القيام بهِ فقال له العابد اعلم أنني اشتريت نفسك بعد أن سلبتها من يد الهلاك ثم وهبتها لله فلا تكن عليها من المسرفين

وخرج الرجل من المدينة كمن يحاول الفرار ومضى على وجههِ تتقاذف به الطرقات وتتهادى بهِ الحقول ولا يشعر لفرط ما نزل بهِ أكان يقبل أو يدبر ولا يعلم أنهُ كان يضرب في قطعةٍ من الارض لا يتعداها .

وهكذا قضى سراة يومهِ هائماً في أودية التيه والضلال ولم يشعر بألم الجوع وان كان لم يذق طعاماً فسار وهو يكاد ينشقّ غيظاً ولا يعلم الا الله على أيّ شيء قد أمسك هذا الغيظ في نفسهِ ولعلهُ سرى اليهِ من ندامتهِ على ماضيه أو من خذلانهِ في حاضرهِ

وكأنهُ كان يحسُّ برقةٍ قد أدركت فؤادهُ وأخذت تقرض من أطراف غلظتهِ فتضعضع نفسه كلما شعر بانزعاج تلك الغلظة التي أسكنها في فؤادهِ ذلك الظلم الغابر وأيدها فيهِ هذا الجدّ العاثر وجعل يتساءل في كل آنٍ عما عساه أن يحل محلها ويؤثر العودة الى السجون على البقاء على تلك الحال التي لا يعلم مأتاها

وكان على عطفي طريقه سياج تطلُّ منها زهور قد أخطأتها ايدي الجناة فجعلت تهيج فيهِ ذكرى الصبا كلما تنسم منها ذلك الارج الفياح الذي لم يكن له عهد به منذ ابتدأت ايام محنته

وقد بلغت من نفسه تلك الذكرى ما لم يبلغه البؤس والشقاء وكذلك قضى يومه على غير استواء

ولما كان الاصيل وقد رسمت الشمس على سطح الارض ظلال الحصى كان (چان ڤالجان) مضطجعاً في جوف خضراء ليس فيها سواه وقد مرَّ برأسها طريق معبّــد ينتهي بمدينة (ديني) تلك التي لاقى فيها صنوف الشقاء

وانه ليفكر في امرهِ وفي تلك الاسمال التي كانت مثار النفور لكل من يراه اذ أحس بوقع اقدام ، فاستوى جالساً فاذا هو يرى سواداً مقبلاً فتبينه فاذا هو غلام يعدُّ من العمر اثنتي عشرة سنةً وهو يحتقب جرةً له ويحمل حيواناً صغيراً جعله وسيلة لرزقه ، وقد

شهد ما كان عليه من الاطمار البالية بعراقته في الفاقة ، وهو يغني بصوت رخيم ، ويلاعب الجوَّ بقطع من الفضة كانت مبلغ ثروته في حياته

فانه ليلهو بقذفها في الجوّ والتقافها اذ هوت كبراها الى الارض وأخذت تجري على رأسها الى حيث كان (چان ڤالجان) مستترًا عن نظر ذلك الغلام خلف تلك العواسج

فما هي الا أن انتهت اليه حتى كان اسرع من السهم في مرّهِ الى وضع قدمه عليها ليحجبها عن نظر ربها الذي كان يحرص عليها حرص الموت على النفوس ويترسم أثرها بنظرٍ يكاد ينهبها وهي تجري على الارض نهبًا

ولما علم بمقرّها وثب اليه فاذا هو يرى عندهُ رجلاً فلم يأخذه الروع ولم يعترهِ الدهش

وكان الطريق اذ ذاك خاليًا من المارة ولا يسمع في هذا الجوّ الفسيح الاّ قطقطة[1] سرب من القطا يسبح في الجوّ على قيد مرمى السهم

فوقف الغلام في وجه الرجل وقد ألقى الشرق[2] في شعر رأسه

---

(١) صوت طير القطا

(٢) بمعنى الشمس

سلوكا ذهبية ونشر على[1] سحنـة ذلك الفاتك طبقة تعلوها حمرة النجيع ، وقال لهُ بصوتٍ يمازجه ارتياح الغلمة وسكينة الابرياء : أين قطعتي ؟ فمدَّ الرجلُ بصرهُ اليهِ وقال : من أنت ؟ قال : أنا (ڤرچي) الصغير

فانتهرهُ الرجلُ ونكس رأسه وتصامم عن سماع كلامهِ ، وأخذ الاول يلحف في السؤال والثاني يبالغ في السكوت حتى ضاق الغلام ذرعاً وأهوى الى ذلك الشيخ وأخذ بمجامع طوقه وجعل يعالج تحويل قدمه عن تلك القطعة الفضية

فزمهر الرجل في وجهه ، ومدَّ يده ليلتمس عصاه ، فأثارت تلك الحركة نخوة الغلام فأغلظ في القول حتى أحفظ[2] ذلك الشيخ ، فثار من مكانهِ وإِهابهُ يكاد يتمزق غيظاً ، وصاح به ان لم تنج بنفسك فلا نجوت بها بعد اليوم

فارتاع الغلام لوعيد ذلك الفاتك واطلق للريح ساقيه وجعل يعدو ولا يلوي على شيءٍ حتي غاب سواده وقد غابت الشمس

ولبث الرجل في مكانهِ حتى سطت عليه غياهب الظلام وهو غائص في لجج من الافكار وكأنه كان ينظر الى أصل شجرة كانت

---

(١) بمعنى الدم

(٢) أغضب

هناك قد وقف نظره عليها ولم يتحوّل ولولا قشعريرة سرت إلى جسمه من قرة ذلك المساء لما عاد الى نفسهِ من غيبوبة هذا الفكر الطويل ولما أحسّ بوخز القر همَّ بالتحوُّل عن هذا المكان فاصلح عليهِ أثوابهُ وانحنى ليأخذ عصاه فأخذ نظره تلك القطعة الفضية وقد كادت تسوخ في الارض فاحتوته الهزّة وجعل يغمغم ويهذي وكأن اجفانه قد شدت الى تلك القطعة باهدابها وكأنما هي عين ترميه بنظرات تخترق احشاءه ٠

ومرّت عليه فترة وهو على تلك الحال ثم أخذ يغالب اضطرابه حتى ثاب اليه السكون فاندفع الى الامام وانقض عليها انقضاض القضاء

ولما صارت في يده أخذ يستقرئ بنظره ذلك الفضاء ويدور بعينهِ في ارجائهِ وما شك من رآه وهو على تلك الحال في انه ضارٍ من الوحش يلتمس مربضاً يستكن فيه على أنه ما كان يرى في تلك الانحاء الا ضباباً قد أعاره الشفق لونه الوردي وقد مدّ الظلام على الارض رواقاً يقصر فيه قاب العين

فشرع في السرى وقد لبس الدجى وتغلغل في هذا الفضاء وطفق يهرول في مشيته وركب تلك الطريق التي نجا منها ذلك الغلام المغبون وما هو الا ان خطا فيها بعض الخطوات حتى وقف بغتةً ورفع عقيرته ينادي باسم ذلك الغلام رجاء ان يسمعهُ

فينقلب اليه وكان يتسمع فلا يسمع شيئاً فما زال يعدو ويصيح وقد ابتلع هذا الظلام شخصه ومزّق ذلك السكون صوته حتى يئس من لحاقهِ .

ولو كان الغلام حيث يسمع ذلك الصوت النكير لما سكن الى اجابته ولضاعف من عدوه وبالغ في اختفائه طلباً للنجاة من غائلتهِ

وان اليأس لينهب فؤاده نهباً اذ بصر بشبح يخوض في احشاء هذا الليل البهيم فدناه فاذا بهِ رجل يحمل شارة الرهبان وقد امتطى جواداً فاستوقفه وسأله بلهفة الحائر ألم تعثر في طريقك أيها الراهب بغلام صغير فقال كلاّ قال الرجل اني أنشد غلاماً فقيراً وأحسبهُ يدعى (بفرچي) قال لم أرَ أحداً فضرب الرجل بيده الى جيبهِ وانتزع منهُ قطعتين من الفضة وقال للراهب خذ هاتين وانفقهما في سبيل الله وفي مواساة ذوي المتربة وانني أدعوك باللهِ ان تقودني الى السجن فانا بعض المجرمين فما كادت تستأذن هذه الكلمات على سمع الراهب حتى همز جواده فمرَّ به مرور الطيف وغادر ذلك البائس في مكانه وهو كأنه بعض الانصاب فلم تكن الاّ لحظة حتى استأنف السرى وطفق يعدو ويصيح وكأنه خولط في عقله وجعل كلما مرَّ بجذع أو بشجرة مثّل له الوهم أنه يرى انساناً جاثماً أو واقفاً فيعطف عليه عطفة المستخبر عن ذلك الغلام

كذلك كانت حالهُ حتى بلغ مكاناً تلتقي عنده سبل ثلاث وقد درج القمر من حجر أمه . فجعل يدعو باسم الغلام وصوته يذهب في هذا الفضاء وقد انقطع عن اجابتهِ كل شيء حتى الصدى فعجز عن التماسك وانحلت عزائمه وقد ناء بهِ كالكل القضاء فسقط على حجر هناك وقال وهو مكبٌّ برأسه على ركبتيه (اشهد أني بائس)

وجال الدمع في عينين لم يسبح انسانهما فيه منذ عشرين عاماً وكأنه كان ينبع من ذلك القلب الذي صدعتهُ الخطوب

* * *

خرج هذا الرجل من عنـد العابد وقد علمنا ما كان من امره وأنه لم يكن له من نفسه ما يحاسبه على عمله

فما وجدت العظات الى قلبهِ سبيلاً ، ولا كان لتلك الاخلاق الفاضلة سلطان على اخلاقه ، ولا وصل ذلك القول الكريم الى فؤاده ولا ظفرت حكمة العابد بعلاج تلك النفس التي نفرت من الهدى نفارها من طبائع الابرار وتحصنت في معقل من الضلال لا تبلغه العظة ولا تعمل فيه الزواجر

وكانت رنة تلك العظات لا تزال تفتق طبلتي أذنيه فيقع في نفسه منها ما يقع ، فيبالغ في صدها ، وتبالغ في كيده ، حتى أوشكت أن تأتي على قوة الشر فيه ، وتستل من قرارة نفسه ذلك الحقد الكمين

وقد بدأ يشعر في هذه المرة بأن صفح العابد عن زلته كان طليعة لكتائب المقادير التي خذل أمامها عناده وإنه ليجني على نفسهِ إن هو أبى إلا الاصرار على ذلك العناد والحفاظ والتمسك لذلك الحقد الذي وقره في صدره على جنس البشر وقد وجب عليه أن يخرج من تلك الحرب إما قاهرًا أو مقهورًا ، تلك الحرب التي قامت بين نفسين نفس تخذت من تقوى الله جندها ونفس جعلت حزب الشيطان حزبها

ولما تعذر عليه المخرج وضاق به الامر ثار من مكانه وأخذ يسري على ضوء ذلك النور الذي أوشك ان ينير سر يرته

ويا ليت شعري هل كانت تعاوده اذ ذاك ذكرى تلك الليلة التي قضاها في مدينة (ديني) وهل كان يسمع صوت ذلك الهاتف السماوي الذي بات ينذره بعقباه وَيكلُ له الخيار بين خلتين ، إما نزوع عن الغواية فسموٌّ الى مقام الابرار ، وإما استرسال في الضلالة فهبوطٌ الى قرار الفجار ، ويوضح له سبيل الحياة بين أمرين ، إما سعادةٌ دونها سعادة ذلك العابد ، وإما بؤس خير منه بؤس المصفد في قاع السجون

وسبيله في الأُولى ان يحلل بحرارة التوبة ما علق باجزاء نفسهِ من بقايا ذلك الشرّ فيصبح ملكاً تقياً ، وفي الثانية ان يلوثها بحمأة الغيّ والضلال فيمسي طريداً شقياً

وهنا نفتح المجال لتلك الاسئلة التي عرضناها على القارئ منذ العهد القريب ولا زلنا نقول ان الخطوب تفتق الاذهان ولكننا لا نعلم علم اليقين أكان لها أثر حتى اليوم في فؤاد ذلك الرجل ، ولعلها كانت تحضره في حين اضطرابه فتزيده حيرة وخبالاً

فلقد احدث في نفسه صنع الجميل على أثر خروجه من السجن وقرب عهده بالشقاء ما يحدثه الضوء الباهر وقد قرع عيناً حديثة

العهد بحالك الظلام

ولما تجلت له تلك الحياة الجديدة في أعلى مجاليها وترآى لهُ آتيها يرفل في ثياب البهجة والبهاء ، ازعجه ذلك المرأى فلم يسطع عليهِ صبرًا وقد بهر نور الفضيلة ذلك البائس فردّ منه الطرف وهو كليل

وما كان (چان ڤالجان) اليوم هو ذلك الغصوب الذي سلب الغلام قطعتهُ بالامس وغلبهُ على أمره ولا هو بصاحب تلك الفعلة الشنعاء

وانما صاحبها هو ذلك الحيوان المفترس الذي دفعته الفطرة الوحشية الى ارتكابها بينا كانت نفسه تسبح في سماء تلك الحياة الجديدة التي أكبرتها

فلقد فعل بالغلام ما فعل مسوقًا بقوّة الشرّ التي مزجتها بأجزاء نفسه مخالطتهُ للاشرار في أيام سجنه ولا يدري أغياً كان يفعل أم رشادًا ؟ ؟

وحين أنست عينهُ بذلك النور وسكنت نفسهُ الى صحبة التقى وردّت الى طبعها ردّ الحسام الى قرابه علم أنهُ أتى عظيماً وارتكب جسيماً . فكادت تتزايل أعضاؤه رهبةً جزعًا وتسيل نفسهُ

وفعلت به تلك الصدمة فعلها ومزقت ذلك الغشاء الذي نسجته

على بصيرتهِ أيدي الخطوب . وفصلت في نفسهِ بين الحق والباطل فعلت بالاوَّل وسفلت بالثاني كأنها ذلك الجوهر الكشاف الذي يلقى به في المزيج ليباعد بين أجزائه فتراه وهو يطفو ببعضها ويرسب ببعضها الآخر

وقبل أن يلمَّ بما ألمَّ به أو يدرك مأتى تلك الحال التي وصل اليها طفق يجري خلف ذلك الغلام ليرد اليه ما سلبه اياه حتى اذا يئس من لحاقه وقف ينظر الى ماضيه فأنكرت نفسهُ نفسهَ

أنكرت نفسهُ الجديدة تلك النفس التي صحبته منذ عشرين عامًا وشبهَ له أنه في عالم الاحلام وأنه يرى أمامهُ طيفًا يمثل له انسانًا قد نحست طلعتهُ ولؤمت غريزتهُ وخبثت طينتهُ قد قبض بيده على عصا وحمل على ظهره حقيبة ملؤها السلب وقد كتبت يد البؤس على جبينهِ ذلك الاسم الممقوت (جان ڤالجان)

وخرج به هول ذلك الموقف عن حدّ الادراك فرسخ في نفسهِ أنه يرى ذلك الشبح رأي العين وأنه يرى أمامه (چان ڤالجان) فجعل يقارن بينه وبين ما يرى وكأنه ينظر في مرآة قد رق ماؤها

وانه ليجرع كأس الغضاضة من يد تلك المقارنة اذ لمح ضوءًا سرى في جوف ذلك الليل فحسبه للوهلة الأولى ضوء مصباح ا

ولكنه ما لبث ان رآه ينمو ويتشكل في صورة البشر حتى كمل انساناً سوياً ثم أخذ يدانيه شيئاً فشيئاً حتى تبين فيه وجه ذلك العابد وما هو الا نور الفضيلة قد تمثل في صورة ذلك الرجل الكريم

فجعل ينظر بعين البصيرة الى هذين التمثالين القائمين أمامه ويقف بنظره على العابد تارة وعلى (جان فالجان) تارة أخرى

وبدأ يتضاءل أمام عينه تمثال ذلك الجاني حتى امحى رسمه وبقي العابد وحده في ذلك الهيكل النوراني

فراعَ الرجل جلال ذلك الموقف وتزاحمت دموع الرهبة في عينيهِ على الخروج

فما زال ينتحب انتحاب الطفل ويبكي بكاء الثكلى حتى سطع من خلال دموعه فجر الحقيقة وبزغت على أثرهِ شمس تلك الحياة الجديدة التي لم يستمرئ لها لذة قبل اليوم وتراءت له صحيفة أعمالهِ وقد سجلت فيها مخازيه فجعل يقرأ فيها سطور ماضيه فنظر جريمته الأُولى وعلى عينها التوبة والاستغفار وتمثلت لهُ غلظة قلبه وفظاظة طباعه وذلك الانتقام الذي أضمرهُ للناس في يوم تسريحهِ

ثم رأى كل ما اقترفه على العابد وما جناه على الغلام

كل اولئك كان عليه مسطوراً ووجد ما عمل حاضراً ولا يظلم ربك أحداً

فسرى وهو مأخوذ بهذا الوجدان الجديد ولا يدري له وجهة حتى اذا افجر[1] وعاد الى رشدهِ رأى نفسهُ راكعاً على عتبة ذلك العابد

ذكرنا في المقدمة ما كان لفكر ذلك المؤلف من سرعة الانتقال وقلنا اناَّ بينا نراهُ يساج الاجرام في افلاكها اذا هو يدارج النمال في مدابها

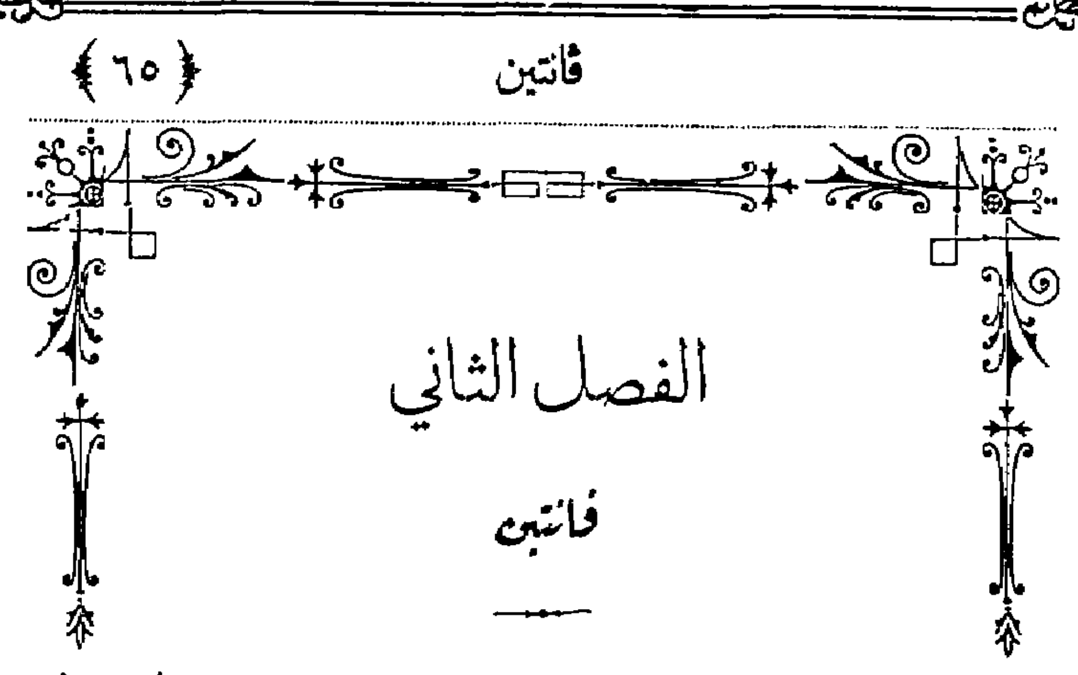
ولقد سرت عدوى ذلك الانتقال من فكره الى يراعه . فاني لأُعاني من تعريب ذلك الكتاب ما أُعاني اذا بهِ قد انتقل طفرًا من خط تلك العظات الى الخوض في السياسة

ولا بدع فقد كان حامله كثير التطلع الى فلك السياسة دائب الرصد لاجرامه مسلس العنان لجواديه فكره ويراعه

فما كاد يأتي على ذلك الفصل السابق حتى تدفق في سرد حوادث سنة ١٨١٥ فملأ صحيفتين بأسماء لم يجر لها ذكر من قبل ولن يكون لها حديث من بعد فرأينا ان نغفل ذكرها وأحببنا

(١) أفجر الرجل اذا أدركه الفجر

ان يكون الكتاب غفلاً من تلك الاحاديث المبتورة التي لم يكن لها أثر في غير ذهن واضعها وان القارئ ليخرج من قراءتها وما في يده شيء منها ما لم يكن ملماً بحوادث تلك السنة واقفاً على تاريخ هذه الأمة ومن لنا بمثل ذلك القارئ الخبير



الفصل الثاني

فانتين

وُلدت تلك البائسة في قرية (مونتراي سيرمير) ولا تعرف لها أُمًا ولا أبًا ولا من يمتُّ اليها بحبل القرابة ولا يعرف الناس من أمرها أكثر من ذلك فوردت سجلّ العناء وأنظرتها الخطوب حتى بلغت سنّ الطفل الدارج وانها لتدرج ذات يوم في الطريق وهي تنتعل أديم الارض[1] اذ مرَّ بها بعض السابلة[2] وسماها (بفانتين) ومن ثمَّ أصبحت تدعى بذلك الاسم الذي أصابها كما كان يصيب ذلك المطر المنهلّ جبينها

ولما بلغت العاشرة من عمرها ولا أدري كيف بلغتها خرجت تطلب وجوه الرزق وتلتمس أسباب القوت في ضواحي تلك القرية

فما زالت تكدح في طلب العيش حتى يفعت أو كادت تفع فعافت نفسها البقاء على تلك الحال وساقها قائد الاضطرار الى الانزعاج عن الوطن فشخصت الى باريز وألقت بنفسها في معترك

(١) بلا حذاء (٢) عابر السبيل

تلك الحياة الجديدة فما زالت تعمل لبطنها وهي تطرق أبواب الارتزاق حتى ظمأ فؤادها الى نهلةٍ من موارد الغرام

وكانت على جمال قد تولت عفة النفس حراسته وقد غنيت ببهجتها عن بهجة الحلي وأمهرها الحسن بما لم تمهر به أترابها ، أمهرها بالنفيسين بالعسجد في شعرها وباللؤلؤ في ثغرها

فما زالت تطوف على تلك الموارد ورائدها الفؤاد حتى وقف بها على منهل قد رقَّ ماؤه فاذا بها ترى فيه وجه ذلك الانسان الذي غلبها على قلبها فأرضعها أفاويق الآمال وأرشفها رضاب الامانيّ حتي أخذت عفتها تسلَّل قطرة قطرة وحتى جلس منها ذلك الخبيث مجلس الرجل من أهله

وكانت في مبداءٍ أمرها حيث كان الغرام طفلاً والعفاف فتياً تغالب كيد ذلك الهوى ويغالبها وتجهد جهدها في الميل عن ذلك الساحر ولكنها ما كانت تميل عنه أصبعاً الا لتميل اليه ميلاً

كذلك كانت حالها حتى اصبح الحبُّ وقد غلبها على أمرها وسقطت بين ذراعي ذلك الاثيم فافترشها ما شاء

ثم زال عنها زوال السكينة عن فؤاد العذراء اذا لم تحصن فرجها وغادرها وهي جفن سلاح(١)

(١) حبلى

وكان لها صواحب ثلاث ، ولذلك الغادر أصحاب ثلاثة وقد جمع اللهو بين هذين الفريقين وضرب عليهما بالقداح فخرجت لكل واحد من فريق الرجال واحدة من فريق النساء

وكان الرجال من بلاد مختلفة وقد هبطوا باريز في أيام العطلة السنوية

وما كاد ينصرم أجل تلك العطلة حتى انصرم حبل الوداد واختفى أولئك الاربعة في يوم واحد

وانفرط على أثر اختفائهم عقدُ التئام الفريق الثاني . فبقيت فانتين وحدها بلا أنيس غير ذلك الجنين الذي كانت تحمله في أحشائها . فانقطعت عن الناس وانزوت في بيت الاحزان وجعلت تعاني من ألم الفراق ما تعاني

وذكا حبُّ ذلك الغائب في فؤادها ، فخرجت ذات يوم تستكتب الناس له كتاباً تدعوه اليها ، وأبطأ خبرهُ عنها ، فشفعت كتابها بثانٍ وعززته بثالث

وما زالت تستكتب الناس وترتقب الجواب حتى احتواها اليأس وبلغ منها القنوط

فأقبلت على نفسها تلومها وباتت تحز الودج أسفاً على حالها . ووضعت حملها فاذا هو طفلة فسمتها (بكوزيت)

وأقامت ما شاء الله حتى نزلت بها الضائقة وحضرها العوز ونضبت موارد الرزق

وكانت لها فضلة مما كانت تتجمل به في أيام لهوها ، فما زالت تنفق منها وتأكل مما كانت تصيبه من ثمنها حتى أمست وليس في يدها ما تستعين به على سدّ حاجها

وقد زهدتها أيامُ قرب الحبيب في مزاولة العمل الذي كانت تصيب من ورائه الرزق لتوفر أسباب العيش وعدم الحاجة الى العمل

ففتر ذلك النشاط الذي ولدتهُ فيها الضرورة ووهى العزمُ ووَهِمَ الحزم

وأصبحت ترى الارض في ناظرها وهي أضيق من كفة الحابل فعزمت على التحوّل من باريز والعودة الى مسقط رأسها

وقالت لعلي أجد هناك ما أصون به أديم هذا الوجه من الاخلاق وأستعين به على تربية هذه اليتيمة

ولما صحت عزيمتها على ذلك جمعت اليها ما بقي من حاجها ، وباعت بعضهُ فوفت مطالب الغرماء وحفظت بعض الدراهم

ثم احتملت طفلتها وخرجت تمشي على استحياء وهي كاسفة البال سيئة الحال وليس وراءَ ما بها من الهمّ غاية

وتنكرَ لها كلُّ شيء فودت بجدع الانف لو أنَّ ظهر الارض من الانس أعرى من سراة الاديم

فسارت ولو رآها أقرب الناس عهداً بها لغابت عنه معرفتها لفرط ما نزل بها من الهزال واخترم جسمها من السقم وان كانت لا تزال عليها مسحة من ذلك الجمال الغابر

وأخذت طريقها الى بلدتها وجعلت كلما أخذ منها التعب تنتحي ناحية من الطريق وتجلس ريثما تنفس عنها كرب المسير وتغذو طفلتها

ونزل بصدرها نازلٌ من السعال دعته الرضاعة الى النزول بذلك الصدر الضعيف فضاعف من وصبها وزاد في ألمها

وما زالت ترامى بها المرامي حتى وقف بها السير على منزل حقير بقرية (منتفرمى) كان قائماً على رأس طريق يدعى بطريق الخبازين أسس في صدر القرن الرابع عشر وزالت معالمهُ اليوم

وكان هذا النزل لذئب من ذئاب الانس يدعى (تيناردييه) وكانت تحتهُ ذئبة من أحدّ الذئاب وأضراها تدعى باسمه ، وهما يقطنان مع أولادهما في ذلك النزل

ولعل ذلك الذئب كان ممن شهدوا موقعة (واترلو) فقد يرى الناظر بأعلى ذلك الباب لوحاً كبيراً قد نقشت عليه هذه الكلمات :

« هلموا الى جنديّ واترلو »

ورُسمت بأسفل اللوح صورة رجل يحمل على ظهره رجلاً آخر عليه شارة القوّاد تلمع على كتفيه النجوم و يشرق في أثوابه الدم وهما تحتَ جوٍ أشبه الاشياء بجوّ المواقع تعقد الدخان فوقهُ سماءً مكفهرّة الارجاء

وقد طرحت أمام ذلك الباب عجلة عاتيـــة من تلك العجلات التي كانت تستخدم في ذلك العهد لحمل الاثقال وجلب الاشجار من الغابات

وكأنها لم تطرح في ذلك المكان الا لتصدأ أو لتزحم الطريق او لتجعلها تلك الذئبة الضارية أُرجوحةً لوليدتها

وقد ستر الوحلُ أخشاب تلك العجلة وكسا الصدأ حديدها ، فأقامت في تلك الطريق وهي كأنها بعض أولئك الرؤساء الدينيين الذين قاموا عثرةً في سبيل الشرائع الغابرة

واتفق أن وقفت (فانتين) على ذلك النزل حين كانت تلك الذئبة تلاعب طفلتيها وقد وضعتها في الارجوحة وهما كأنهما قمران في طُفاوة او زهرتان في كمام

وكانتا متعانقتين في هزة ذلك المهاد وصغراهما بين ذراعي كبراهما وقد سلخت الكبرى منهما ثلاثين شهراً وأوشكت الصغرى

أن تهل العشرين

وجلست أمهما على كثب منهما تشارفهما وتتغنى بشيء من الكلام المقفى

وانها لتشدو كذلك اذ وقفت فانتين على رأسها وقالت لعلكِ أمُّ هاتين الزهرتين

فلم تحر جواباً ولم تلتفت ولعلها لم تسمع صوت تلك السائلة ، فقد استطرد بها جوادُ الطرب في ميدان الغناء

فعاودت فانتين السؤال بصوت كان خليقاً بالوصول الى مسمع تلك المندفعة في غنائها

فالتفتت اليها فاذا هي ترى فتاةً قد أنصب بدنها السير وكدها الهمُّ والضير ونال منها البؤس وبلغ منها الشقاء

وقد كاد يمسح الحزن ما كان على وجهها من مسحة ذلك الجمال ، وأوشك أن يذهب البكاء بما كان كامناً في محاجرها من ذلك السحر الحلال

فانتقلت حمرة وجنتيها الى عينيها ، وهاجر سوادُ لحظها الى حظها ، وامتدَّ اصفرارُ شعرها الى لونها ، ودبَّ سقمُ جفنها الى صدرها ، وسرى نحولُ خصرها الى جسمها ، والتقى في مآقيها دمعُ الحزن بدمع الدلال ، واجتمع في قدّها ذلك الهيف وذاك الهزال

وقد أدمى إدمان وخز الإبر سبابتها أيام كانت تخيط لتعيش ، وذهب الفقرُ بزينتها فليس عليها من الثياب غير ما يحصنها من البرد ويقيها الحرّ

تلك (فانتين) التي كانت تقف على جمالها العيون ولو انها تبتسم اليوم لرأى الناظر ذلك اللؤلؤ المنظوم في ثغرها ، ولكن الحزن والشقاء لم يدعا للابتسام سبيلاً الى ذلك الثغر الذي كان منطبقاً على ثنأياه انطباق المحارة على الجوهرة

وكانت تحمل على ظهرها تلك الحقيبة التي اودعتها كل ما تملك وتحمل بين ذراعيها طفلة ساجية الطرف عبلة الساق وضاءة الجبين لها من صدر أمها مهاد ، ومن ذراعها وساد ، أخذ الكرى بمعاقد اجفانها فنامت نوماً هنيئاً بين ذراعين قد صيغتا من الشفقة وصدر قد صور من الحنان

فقالت لها ربة النزل وقد رفقت في القول نعم هما ريحانتاي ، ثم دعتها الى الجلوس بجانبها على عتبة الدار وانشأت تحدثها عن نفسها وعن بعلها ، وجعلت تحاسنها في القول وتلين لها في الكلام ، ولم يكن ذلك اللين من شأنها ولا تلك الرقة من طباعها ، ولكن ربما وجدت الرحمة مسرباً الى تلك الافئدة الغليظة عند ذكر صغارها

وكانت تلك المرأة شقراء اللون جهمة الوجه وهي فوق الطويلة

ودون البادنة يزدهيها شيء من الخلاعة و يشوب لسانها نوع من التزويق شأن أرباب الفنادق ولا احسبها في ذلك العهد الا وقد جاوزت حدّ الثلاثين

ولو انهـــا انتصبت قائمةً لراعَ (فانتين) طولُ قامتها ولذهب بارتياحها وسكونها الى محادثتها ولا بدع فانها لم تكن الاّ حرث جنديٍ وفراش وحشيٍّ

ولما فرغت من حديثها أخذت فانتين تنفض اليها جملة حالها ، غير انها كتمتها أمرها والقت في روعها انها ارمل قد مات عنها بعلها وان الحرفة التي كانت تزاولها قد كسد سوقها في باريز فغادرتها وخرجت تضرب في الارض رجاء ان تصيب رزقاً لها ولطفلتها وانها قضت عامة يومها وهي تعاني تعب السير على قدميها وان ابنتها قد أخذت من ذلك التعب بقسمها

وما كادت تأتي على ذلك الحديث حتى انحنت على طفلتها تقبلها وتضمها اليها ، فانتبهت الطفلة لحرارة تلك القبل وجعلت تدور في هذا الفضاء بعينين قد جال في انسانيهما الوقار وكمنت فيهما السكينة وقد نمَّ نظرها عن سرّ تلك الفطرة السليمة التي لم يكن مثلها بجانب ما ندعوه فينا بالفضيلة الا كمثل السماء صفا أديمها بجانب الشفق شابتهُ الشوائب وما يدريك لعلها كان يقوم بنفسها في هذه الفترة انها ملاك

من الملائك يطل من سماء عصمته على أعمال هذا الورى

وما هي الا جولة فكر حتى تغيرت حالها وجعلت تبتسم ابتسام الظافر وهمت بالانزلاق من حجر أمها مدفوعة بتلك الارادة التي لا يقف في سبيلها شيء عند أولئك الاطفال وقد حاولت أمها ان تحبسها عن مقصدها فما استطاعت لها رداً

ولما صارت على الارض أخذت تدب حتى انتهت حيث الارجوحة والوليدتان ، فوقفت تنظر وكأنها تعجب مما ترى ، وقامت الأمّ الى بنتيها فانزلتهما الى الارض ، وقالت لثلاثتهنّ هيا العبنَ جميعاً

وربطت السنّ بينهنّ عرى الائتلاف فطفقنَ يمرحنَ ويلعبنَ وينكتنَ في الارض نكتاً

وكانت تلك القادمة الجديدة اكثرهنّ مهارة وأبرعهنّ يداً في حفر تلك النكت

وجلست ربة النزل الى فانتين تحادثها وتحاسنها وما زالت بها حتى خلبتها وأنست منها الارتياح الى سماع حديثها فأقبلت عليها بوجهها وجعلت تسائلها عن بنتها وهي تخبرها خبرها

وبينا تتحادث الامان في ناحية وتلعب الصغار في ناحية أخرى اذ برزت احدى بنات الارض من خدرها وخرجت تسعى من بعض تلك النكت فراع الصغارَ منظرُ تلك الحشرة وجزعنَ لرؤيتها

جزعاً شديداً وأشفقنَ منها وقد ضمهنَّ الخوف الى بعضهنَّ فتقاربنَ حتى التصقت جباههنَّ واستولى عليهنَّ الدهش جميعاً

وحانت من ربة النزل التفاتة فلمحتهنَّ على تلك الحال وقد تجمعنَ فظنت ذلك لداعية الانعطاف والميل فقالت لفانتين وهي تحدثها ألا تنظرين الى هؤلياً الاخوات الثلاث

فوصلت تلك الكلمة الى فؤاد فانتين قبل سمعها فأمسكت بذراع صاحبتها وقالت لها لقد كدت تلمين بما كان يقوم بنفسي منذ رأيتك فاني قد عولت على مغادرة ابنتي بهذا النزل أفلا تكفلينها

فخرجت ربة النزل بالصمت عن لا ونعم وأشارت برأسها اشارة تشعر بالتردد بين الرفض والقبول

فقالت فانتين ولا أحسبك الا ستعجبين من أمري ولكن الحاجة تدعوني الى ذلك فقد استحال عليّ أن أجمع بين السعي وراء العمل وبين اصطحاب تلك الطفلة فأنا غادية الى التماس بعض وجوه الرزق وتاركة (كوزيت) بين ذراعي أمها الجديدة وباعثة لكِ في كل شهر بما يقوم بنفقتها وآخذة على نفسي القيام بدفع اثنى عشر درهماً في كل شهر لكفالتها فانظري ماذا تأمرين

وما هي الا أن انتهت من ذلك الحديث حتى سمعت في صحن تلك الدار صوتاً شبيهاً بصوت انفجار البارود وقائلاً يقول لها أولى

الكِ أيتها القادمة أن تدفعي أربعـة عشر درهماً ، وقد استحال غير ذلك

فقالت فانتين كذا فليكن ثم نظرت الى صاحبتها نظرة المستخبر عن صاحب ذلك الصوت فألمت تلك الذئبة بمقصدها فقالت انه صوت زوجي وهو رب النزل وصاحب الامر والنهي فيه فلا تجعلي لهُ سبيلاً الى رفض ما تطلبين مهما اشتط في الطلب وكلفك ذلك من المؤونة

وقال الذي هي في داره ان تقبل الكفالة أو تعجلي بدفع نفقة ستة أهلة وتتركي عندها من الثياب ما يدفع عنها البرد والحر ثم لبث غير بعيـد وخرج اليها باسطاً يده فنقدته الدراهم وقضت عندهم سواد الليل

ولما كان الفجر قامت فانتين فودعت طفلتها وخلفت تلك الحمامة في وكر الصقور وسارت ومدامعها تسابق خطواتها

وما كادت تتنادر ذلك النزل حتى غادرته الرحمة على أثرها وأصبحت (كوزيت) بين زوجين لو قسّم ما في فؤاديهما من الغلظة على أفئدة البشر لما وجدت الرحمة الى القلوب سبيلاً

وقالت المرأة لزوجها ما لنا ولتلك القنبرة (وكذلك كانوا يدعونها) نغذوها ولا تعمل واني لأرى لديها من الثياب ما يقوم

ثمنه بوفاء بعض ما أثقل كواهلنا من الديون فان رأيت أن نجمع تلك الثياب ونبيعها

فقال الرجل ومن الرأي أن تعجلي ببيعها اليوم فان غداً لموعد المقاضاة وليس في أيدينا ما يسدّ مطالب الغرماء

وطلعت شمس الغد على تلك اليتيمة بالبؤس والشقاء فلبست ثياب الذل ، وطرحت رداء الدل ، وكانت كلما شبّت يوماً شبّ معها البؤس عاماً ، حتى أصبح الثرى مهادها والمدر وسادها ، وتبدلت من حضن أمها حضن التراب ومن لين ذراعها خشونة الجماد

اين عين فانتين ترى ذلك الطمر الذي تضل الأبر سبيلها في شقوقه ، وينتهي العدُّ دون خروقه تضحى[1] فيه وتخصر[2] وتنطوي تحته وتنشر ، تبكر بكور الغراب الى كنس الدار والفناء ، وتنطلق والصبح والليل خيطان الى حمل الماء ، تنطلق الى النهر والنهر بعيد ، وتستقبل القرّ والقرُّ شديد ، وتقطع الطريق وهي طويلة ، وتحمل الجرة وهي ثقيلة

أين عين فانتين ترى تلك اليتيمة وهي تحت الخوان ، تؤا كل الجروَ والهرّة ، وتلقف الكسرة بعد الكسرة ، وطعامها دون الهرّ وفوق الكلب (والهرّ ينتقي ما طاب والكلب يلتهم كل ما اصاب)

(١) يصيبها حرّ الضحى (٢) يصيبها البرد

ولم تزل تلك القنبرة رهينة الألم والعذاب ، يعدّون انفاسها فاذا تنفست قالوا لها لقد افسدت علينا الهواء ويرقبون حركاتها فاذا تحركت قالوا لها لقد كدرت علينا صفو السكون حتى ضئل جسمها واضمحل رسمها

ولؤمَ صاحب النزل واشتط في طلب النفقة من أمها ، فما زال يطلب المزيد حتى كلفها ذلك فوق الطاقة ، ووراء الفاقة ، فكانت تعمل عامة اليوم ، وتجعل ما تصيبه من الاجر لتلك النفقة الفادحة

وكأنَّ الخبيث قد ألمّ بباطن الامر ، فقال لامرأته ذات يوم اني لأعلم من أمر فانتين ما لا تعلمين ، ان هي الا بغيٌّ قد غلبت على أمرها

وما جاءتها تلك الطفلة الا من طريق السفاح ولا أرى شيئاً هو اصلح لحالنا من انتهاز هذه النهزة والتماس الزيادة في النفقة لعلنا ان نصيب من وراء ذلك ما نوفي بهِ الديون واني ليعرض لي ان فانتين لا ترى بدّاً من الاجابة رجاء ان يخفى أمرها ولا أحسبها الا ستخضع خضوع المضطر

وسقطت الكتب على فانتين سقوط القضاء وكلها في طلب الزيادة في النفقة ووصف ذلك النعيم التي ترتع فيهِ طفلتها ، وكانوا كلما افرطوا عليها في العذاب بعثوا لأمها بما يسكّن من نفسها حتى

أرسلت لهم قوتها وكل ما تصل يدها اليهِ ، فصلح شأن النزل ووفوا الديون وأصبحوا ببركةوجود (كوزيت) وكدح تلك الارمل وهم في سعة من الحال وبشاشة من العيش

وما كان خبث أنفسهما وحدهُ كافلاً للسعادة فان النزل قبل حلول كوزيت لم يكن شيئاً مذكوراً فحلت بحلولها البركة وبسم لهم ثغر الزمان

ولبثت عندهم كوزيت ثلاث سنين تعاني من ألم الشقاء ماتعاني وهم يمرحون من وراء عذابها في بحبوحة النعيم

ولو قدمت فانتين بعد مرور تلك السنوات لتفقدحال طفلتها لأنكرت رؤيتها ولغابت عنها معرفتها لفرط ما نزل بها من البؤس وما نابها من الشقاء

وكانوا يتحدثون في تلك القرية بأمرها فيقولون ان أصحاب النزل على ما هم فيهِ من الكفاف وخشونة العيش يغذون طفلة لقيطة ويربونها احتساباً ، فنعمَ العمل ونعمَ الاجر والثواب.

وبعد أن غادرت فانتين طفلتها بذلك النزل كما قدمنا ركبت طريق قريتها التي وُلدت فيها حتى اذا أشرفت عليها بعد الجهد والعناء نظرت فاذا القرية على غير ما تعهد ، تسيل بها أودية الرخاء ويبسم لها ثغر السعادة

وقد قامت فيها المصانع وشيدت دور التجارة ، وأصبحت حركة الاشغال لدوام اتصالها وسرعة انتقالها وهي أشبه شيء بحركة الارض

وكانت قد هجرتها منذ اثنتي عشرة سنة ، ولما عادت وأبصرت ما هي فيه من رخاء العيش وبشاشة الحال قالت في نفسها لقد كانت سعادة هذا البلد بمقدار شقائي

فاني ما كنتُ أهبط دَرْكاً في مهاوي الشقاء حتى كان يعلو درجةً في مراقي الهناء

ولقد صدقت فانتين في حديثها لنفسها فان هذا البلد قد أدرَّ الله لاهلهِ اخلاف الرزق ودخلت فيه السعادة بدخول رجل هبطهُ عند انطواء أجل سنة ١٨١٥ تحتَ جنحٍ من الدجا ، فكتم الليلُ أمره

وشبّتْ نارٌ في احدى الدور عند قدوم ذلك الغريب ، فهبّ الناس لاِطفائها

فاندسّ الرجل في غمارهم وغامر بنفسه في النار وكان أوّل المتواقعين عليهـا حتى استلّ من فمها طفلين أوشكا أن يبيتا رزقًا لها وكانا لكبير الشرطة ، فأكبروا فعله ، وملأُوا أُذنيه حمدًا وثناءً ، ولم يسألوه عن اجازة المرور ، ولم تمرّ بهم خلجاتٌ من الشك في أمره وان كان غريباً

وبقي (مادلين[1]) وكذلك سمى نفسه في تلك القرية واتخذها وطناً له ، ولا يعلم أهلها من امره غير ما كان يلوح على محياه من سيما الخير والصلاح

وكان قد وقف على ابواب الخمسين من عمره وأصبح كثير الاطراق كلفاً بالعزلة

ولم يكن يملك يوم هبط القرية غير دراهم معدودة ، فدخل في مصنع للتجارة كان قائماً هناك وأحسبه دخل فيه اجيراً

فأقبلت دنياه وناهيك بها اذا أقبلت حتى اصبحت فضته ذهبا وأمسى تراب عمله تبرا

ولم تكن الا دورة من دورات الفلك حتى اصبح ربا لذلك المصنع . فأثرى الرجل إثراء يكاد يدفعه العقل لو لم يقع تحت العيان ، فأقام للاجراء داراً ، وشاد للأجيرات أخرى ، وأجرى عليهما الارزاق وفرش الحجرات بفاخر الاثاث ، وكان لا يدخل في عمله غير الصالح من الرجال والصالحة من النساء

فاستقامت له الامور وتقلبت به احوالٌ جميلةٌ حتى اصبح ذا وفرٍ كبير

فكانوا يقدرون ما اودع في خزائن المصارف بخمسة وعشرين

---

(١) ومادلين هو چان فالجان بطل الرواية

الف قطعة ذهبية

وما آلت اليه تلك الوفرة حتى أنفق مثليها في صالح الاعمال ومواساة البؤساء

وشاد في القرية مدرسة للذكور وأخرى للاناث واجرى عليهما الرواتب ، ووسع في نطاق دار المرضى ، وكان لا ينهر سائلاً ولا يردُّ عاملا

فاختفى من تلك القرية أثر الشقاء ، فكنت اذا غشيت دارًا رأيت ربها في هناء واذا طرقتَ حانوتاً وجدت صاحبها في رخاء

كل ذلك كان بفضل الانكماش في الاعمال وبركة الكسب من الحلال

وما بلغ (مادلين) ذلك المبلغ الذي ترى الاّ بطرح الاثرة ومصارعة الجشع

ولقد بلغ به من حب الخير أن اقام للعجزة ملجأً وللمعدمين الذين أمسوا من سقط المتاع (ولا عهد لبلاد الفرنسيس قبل ذلك اليوم بمثله)

وجعل في مصنعه خزينة لمساعدة عمّاله الذين أقعدهم الكبر وقطعتهم العاهة

ولم يزل نجمهُ في سعود وهمته في صعود حتى نَبُهَ ذكرهُ وعمّ

خيرُهُ ونمى خبرهُ الى بيت الملك

فارتاح الملكُ الى سماع ما أنهوهُ اليه من امره ورأى أن يجعل له ثواباً على ذلك العمل المبرور فأمر باقامته شيخاً على ذلك البلد

ولما بلغته إرادة الملك بالغ في الضراعة بالتماس الاقالة حتى أقالوه فعجب الناس من امره فمنهم من أخذها عليه ومنهم من عدّها له فقال قومٌ انه النزق وقال آخرون انها القناعة

وجرت حركات الدهر فوق تلك الحركة التجارية حتى اتسعت هالتها ، فجدّد الملكُ ارادته باقامة « مادلين » شيخاً لبلده ، وجدّد مادلين طلب الاعفاء

كلُّ ذلك والرجل تزداد نباهة ذكره ويسمو علوُّ قدره حتى حيّتهُ العظماء ودعته الاندية العالية ، وحتى مشى اليه الكبير والصغير بالرجاء الى الخضوع لتلك الارادة فأُكرِهَ على ذلك المنصب اكراهاً

وكان بعض سقاط القوم يبسطون فيه الالسن ولا يحفظون له غيباً ، فقالوا حينما رأوه يجمع في أوّل أمرهِ الاموال انهُ تاجرٌ يطلب الاثراء

وقالوا حين رأوه يستثمر ما جمعه ان به لجشعاً ، وزعموا حين بدت لهم منه كراهة الترف والظهور انه افقيٌّ لا يألف النعيم ولا يعرف قدر السعادة

وحكموا حين بدا لهم منه رفض الدنيا انه مائق يجمل به الفقر ولا يليق بوجهه الغنى

ولبث « مادلين » في يومه مثله في أمسه لم يغير المنصب من نفسه ولم يلهه الاشتغال به عن الاشتغال بما هو فيه فبقي على عهدنا به من مداومة الاطراق وحب العزلة عن الناس

فاذا رأيته رأيت شيخاً آذن ليل شعره بالرحيل وقد لوحته الشمس وجال في عينه الوقار ولاحت عليه سجنة الفلاسفة

وكان يجلس للنظر في أمور الناس فاذا فرغ من ذلك انكفا الى حجرته فقضى لبانته من مأكله ومشربه وانكب على مطالعة الكتب .

وقد رأى ان يعوض ما فاته من تحصيل العلوم في أيام صباه فعكف على الدرس في أيام شيخوخته وان كان الفقر قد منعه في أوليات عمره من مزاولة التعلم فقد ساعده الغنى في أخرياته على تناوله ورأى من الكتب صدراً حليماً وودا مقيماً فسكن الى صحبتها وارتاح الى عشرتها

وكان ينطلق اذا شمر النهار الى المزارع والغابات ومعه آلة صيد قد اتقى الله في استعمالها ، فما هاج بها غراباً ساقطاً ولا غال طائراً لاقطاً

ولكنهُ كان يحملها لردِّ الغوائل فيصحبها في وقت أمنهِ لتؤمنه في وقت خوفهِ

وكان مع ذلك ماهرًا في التسديد ، حاذقًا في التصويب يصوّب على الشيء ويرمي فيضع الرمية من الهدف حيث يشاء

وهو فتيُّ القوّة ، قويّ الساعد ، يرفع الجواد على كاهلهِ ، ويمسك بذنب الفرس ، ويخلد به الى الارض فيتحلحل اذا كان قويًا ، ويُقعي اذا كان ضعيفًا ، ويستقبل الثور الهائج فيأخذهُ بقرنيه

وهو على ما فيهِ من القوّة والبأس رقيق القلب يجد من الألم لغيره ما يجده لنفسه ، فما مرّت به جنازة الا وكان أوّل المشيعين لها ولا امتحن انسان بمكروه الا وكان أوّل المعزين لهُ ، وتراهُ عند انطلاقه الى الجنائز يختلط بجماعة القسيسين فينوح نوحهم ويرتل ترتيلهم ، وكأنّ نفسه تسبح في غير هذا العالم وعينه تشخص لغير ما يدركه الحسّ ، وكأنّ أسلاكًا من الالهام الالهي قد امتدت بين أذنيهِ وبين أسرار ذلك الأبد فجعل يلقي بسمعه الى تلك الاصوات التي باتت تشدو بحزن على حفافي هاوية الفناء

وكم من يدٍ له على الفقراء وصنيعة مع البؤساء يغشى دورهم وهم غير شاهدين فيلقي لهم بالنقود تحت الوسائد وفوق الفراش ثم ينسل تحت الليل كراهة ان يرى كأنه يرتكب اثمًا أو يعالج اختلاس شيء

ويعود رب الدار فيرى فيها أثر مادلين فيظن ان اللصوص قد ارتقبوا غيبته فجاسوا خلال دارهِ فلا يزال يتفقد حاجهُ حتى يعثر بتلك النقود فيأخذها وهو يقول لقد أرادوا سلب نعمتي ولكن أبى الله الا ان أسلبهم ما لهم وما ذاك الا لأمر نزل بهم فأذهلهم عنهُ

وكذلك كان يجيء بالحسنة وقد كفى الفقيرَ مؤُنة السؤال ووفر عليه غضاضة ذلك الموقف

ولا تسل عند اللقاء عن طلاقة وجهه التي كانت تستتر تحتها هموم صدره وعن محاسنته المعدمين

فهو كما يصفونه غنيّ لم يخرج به الغنى عن حدّ التواضع وسعيدٌ لم تقف به السعادة على التبسط والانشراح

وفي أوائل سنة ١٨٢١ أجاب عابد (ديني) دعوة ربه وقد نيّفَ على الثمانين من عمره فنعتهُ الصحف وطار خبر نعيه حتى وقع في مسامع مادلين فوجد عليه وجداً شديداً وظهر من غدهِ وعليه شارة الحداد

فتساءل الناس عن نبإِه ومشى بعضهم الى بعض وجعلوا يقولون لقد كنا في ليلٍ من الشك في أمر هذا الرجل حتى أضاء لنا حسبهُ الوضاح فما هو الا من تلك الأسرة الشريفة، ولا ريب أن نسبهُ يتصل بذلك العابد التقيّ

وأقاموا على ذلك اليقين أياماً حتى تعرَّض له بعضهم بالسؤال فقال وقد أخذ عليه طريقهُ : اني أراك تحمل شارة الحداد منذ نعى الناعي عابد مدينة (ديني) فهل أنت ممن يمتُّ اليه بحبل القرابة ؟

فقال مادلين وقد كاد ينطق الحزن في أحشائه : كلا ، وانما كنت في أوّل أمري خادماً عندهُ

وكان العابد قبل موته قد كُفَّ بصره ، فلبث كذلك بضع سنين لا يجد ألماً لفقدان نور البصر وقد بقي له نور البصيرة

وبقيت أختهُ بجانبهِ لا تنحرف عن صراط طاعته ، ولا تنفك عن ملازمته

فهي لا تريم عن مخدعه الا لإمضاء أمره أو قضاء حاجته

وكانت تحرص على رضاه حرص المرء على حدقة عينه حتى رأى أنه قد استعاض عن عينه بعين ذلك القلب الذي بات لا يغفل عن رعايته

ولبث ذلك البصير أميراً لدولة القلوب ، وكان يقول في نفسه لو تمَّ الكمال لشيء في هذه الحياة الدنيا لأوشك أمري أن يتم كماله فاني أراني لا ينقصني شيء من السعادة

اللهم انك ان كنت قد استرجعتَ مني هبة النظر فقد جعلتَ أفئدةً من الناس تأوي اليَّ

اللهم إن من آوت اليه الافئدة كان خليقاً أن يصبح حامداً ويمسي شكوراً .

وكذلك كان أمره في آخر أيامه وأخته لا تزال بجانبه يشاهدها قلبه وان لم ترها عينه وتحسس روحهُ روحَها في ظلمة هذه الدار الفانية حتى تعثر بها فتنجاب للقائهما تلك الظلمة و يبدو كوكب الصفاء

نعم كذلك كان أمره حتى انتقل من نعيم دنياه الى نعيم أخراه

و بلغ خبر منعاه مادلين كما ذكرنا فوجد عليه موجدته وأقام على حزنه حتى انصرمت أيام الحداد

وما زال الزمن يحلّل من حقد مبغضيه ويستلّ الوساوس من صدورهم حتى أصبح وليس في القرية من يرتاب في أمره فسكنت اليه النفوس النافرة وعطفت عليه القلوب الصوادف وبات موضع الحاجة ومحلّ الامل ومهبط الثقة ينتجعه المضطر ويستعدي به المظلوم على الظالم ويفدُ اليه المتخاصمان من الاطراف للمقاضاة فيصل بين المتقاطعين ويوَفق بين المتدابرين ويحكم بالتوفيق فلا ينحرف عن الحق كأن قانون الطبيعة البشرية قد طبع في نفسه فطالعه ضميره وانطلق به لسانه

عطفت عليه القلوب الصوادف الا قلباً واحداً كان يبالغ في الميل عنه كلما بالغت قلوب الناس في الميل اليه

وكان هذا القلب في صدر رجل من كبار الشرطة قد هبط تلك القرية منذ العهد القريب فشهد مادلين وهو في مبتسم زمانه وعزّ سلطانه وقد استقرّ في الذروة من الجاه وبلغ الغاية من الغنى فكان كلما مرَّ به أحسّ بدبيب الكراهة في نفسه بصورة قد أعجزه ادراك مأتاها

ولا عجب فان لبعض النفوس إشرافًا على خافيات الامور يوَلد فيها من الشعور الحقيقي ما تنبسط له مرة وتنقبض أخرى

وهوكذلك الشعور الذي يقع أحيانًا في نفوس البشر فيحدث فيها عاطفة الميل أو النفور عند النظرة الاولى ، ويقف فيها موقف المستبد لا يخضع لسلطان العقل ولا يجيب نداء الضمير فيقاطع بينها و يباين بين طبائعها و يوحي اليها عند اللقاء ، فترى النفس التي رُكّبت فيها طبائع الكلب تركب نُفرتها عند رؤية كل نفس قد رُكّزت فيها طبائع الهرّ

أقول ذلك ولو كانت نفوسنا مما يقع تحت الحس لرأيت كل واحدة منها ممسكةً بذراع أختها من نفوس تلك العجاوات

ولعلمت ان لكل انسان حيوانًا يمثل طباعه ويكيّف أطواره

ولأدركت ان هذه الوحوش وتلك الاطيار لم تكن الا تماثيل أعمالنا ، فمنها ما يمثل الفضيلة ومنها ما يمثل الرذيلة ، وهي وان لم

تدركها الابصار قد علمت بوجودها النفوس الهاماً من الخالق الذي جعلها لها تذكرة واعتباراً

أما الآن وقد سلمت معنا أيها القارئ ان لكل انسان حيواناً يمثل طباعه فقد سهل علينا ان نمثل لك نفس ذلك الرجل الشرطي وأعني به (جافير)

زعم بعضهم ان الكلب اذا وقع على الذئبة أولدها جرواً ، وان الذئبة تخشى ان هي انظرته حتى يشب ان يعطف على صغارها فيغتالها فلذلك تنحي عليهِ وهو صغير

فلو أننا جئنا بذلك الجرو وأسكناه في هيكل بشرى لتبين فيه القارئ شخص (جافير)

ذلك هو الرجل الذي ما فتئ يتعقب (مادلين) و يسير على أثره مسير القضاء في حجب الغيب فهو اذا لمحه ماشياً كاد بصره ينهب مواقع أقدامه واذا سمعه محدثاً كاد سمعه يختطف ألفاظه قبل أن تبرح فاه وكلما وقع تحت بصره قال في نفسه ترى أين نظرت هذا الرجل ، وجعل يطالب الذاكرة كمن يحاول تذكار شيء درَجَ في أثناء النسيان وينتهي بقوله ولن يغلبني هذا الرجل على أمري وان بالغ في اخفاء أمره

وكان (جافير) مقيماً بتلك القرية كبيراً لجماعة الجواسيس من

الشرطة ، والشرطة كما تعلم قوم يعرفون بسيماهم تلوح بمعاطفهم مخائل السلطة وتهب من أردانهم ريح الخساسة ، وكذلك كان ڇافير ولكنه لم يكن خسيساً

وكان مولده بسجن النساء حيث كانت أُمهُ سجينةً ، وهي من هؤلاء النسوة اللاتي يحترفن باستطلاع الحظوظ من أوراق اللعب ، وكان أبوه سجيناً بسجن الرجال

فشبَّ ابن السجينين في حجر البؤس والشقاء ، ولما بلغ أشدَّهُ نظر فرأى بينهُ وبين ذلك المجتمع الانساني سدًّا قد استحال عليه أن يجاوزهُ

وعلم أن هذا المجتمع لا ينبذ وراء ذلك السدّ الا أحد رجلين رجلاً ناصبهُ العداوة فعمل على كيده ، ورجلاً منحـهُ الوداد فعمل لمناصحته

وقد وجب أن يكون ڇافير أحد هذين الرجلين فشمست نفسه عن الاول وسكنت الى الثاني

فانتظم في سلك رجال الشرطة وأخلص في العمل وحرص على الطاعة حتى عهد اليه بأمر التفتيش ، وأصبح كبيرًا لفرقة من الجواسيس

وكان يمقت الاشرار مقتًا شديدًا ويتفانى في الايقاع بهم وان

كان هو من سلالتهم

وقبل ان يسترسل بنا القلم في تصوير خُلقِ ذلك الرجل فقد رأينا ان نصوّر للقارئ خَلقَهُ فنقول :

كان جافير ذا سحنة خاصة به وكانت له لحية قد أغرى الموسى ببعضها وحرص على استبقاء بعضها فأخصب عاليها واجدب سافلها واستهلت ذُراها عند العارضين واجتُثّت أصولها عند العنفقة ، وكان أفطس الأنف غائر المنخرين يخال الناظر الى غؤور منخريه وبروز شعر لحيته أنه يرى كهفين قد أقاما بين غابتين ، وكان اذا تبسم وقل ان يقع منه ذلك اراك ثغرهُ اصول انيابه فهو اذا ضحِك فنَمِرٌ ، واذا غتَّ من ضحكه فعقور ، تخذت لها العبوسة بين عينيهِ مسكنًا واطلت النفرة من محاجره وستر شعر رأسه جبينه وحاجبيه

ذاك خَلقُ الرجل نصوّره للقارئ وأما خُلُقُهُ فقد كان قائمًا على خلتين كريمتين ، احترام السلطة الحاكمة ، ومقت المستخفين بها

غير ان المغالاة فيهما قد خرجت به عن حدّ الاعتدال فانكر الناس منه ذلك

فكان يرى ان كل ما يقع من جرائم القتل والسلب داخل في باب الاستخفاف بتلك السلطة ويسترسل في الثقة بكل عامل في الحكومة وزيرا كان أو حاجبًا

وينظر بعين النفور والبغضاء لكل من ولج باب المخالفة ولو لم يقع منه ذلك الاَّ مرة في حياتهِ

ويقول وهو يعتقد ما يقول ان القضاة بهم عصمة عن الزلل فهم لا يخطئون وان رجال الحكومة هم اشراف على الامور فهم لا يُخدعون ويزعم ان التوبة لا تغسل الحوبة وان المرء اذا أجرم مرة عاش دهرهُ مجرماً لا تنفعهُ الانابة ولا يلوي بجريمته العقاب

كذلك كان يبالغ في الخلتين ولا يستثني أحداً في الحالتين ·

وهو مع ما ذكرنا عنهُ وقور صبور كثير التفكير خاشع القلب عالي النفس مهيب في العين قد أرصد حياته لشيئين لا ثالث لهما ، السهر والمراقبة ·

وكان يعمل وهو على كمال اليقين من انتفاع الناس بعمله ، ويراقب الله في ذلك العمل ولا ينحرف شعرة عن أوامر الدين ونواهيه فهو في حرفته كالراهب في عبادتهِ

والويل ثم الويل لمن وقع في مخالبهِ ولو كان من ذوي قرابتهِ ، فانهُ ليرد أباهُ الى السجن اذا قبض عليهِ وهو فارٌّ ، وليعارض في رجوع أمهِ الى بلدها بعد انقضاء سجنها

وليفعل ذلك وهو أروح ما يكون نفساً وأهدأ ما يكون ضميراً ظناً منهُ أنهُ انما يرضي بذلك شريعة الأرض ولا يسخط شريعة السماء

وكان عيشه بين التقشف والعزلة عن الناس فما صادفه انسان مرة متروضاً ، ولا لح عليهِ أثر الترف والنعيم ، كأنهُ لم يخلق لغير الكدّ والعناء بين المراقبه والاختفاء

وكنت اذا رأيتهُ في حين تجسسه رأيت رجلاً قد غاب جبينه تحت قلنسوته واستترت عيناهُ تحت حاجبيهِ وأختفت يداهُ تحت كميه وانزوت عصاه تحت ردائهِ حتى اذا عنَّ له صيدٌ أو سنحت له فرصة انتفض فظهر لك ما اختفى من أمره كأنما خرج من كمين أو وثب من ظلمة الى نور

قلنا انه لا عيب في ذلك الرجل غير تلك المغالاة ، فهو يغالي حتى في معاملته لنفسه

اللهم الا ساعات معدودة من أيام حياته كان يرى فيها نفسه راضياً عن نفسه فيهون عليها بعض الشيء من تلك المعاملة

وآية رضاهُ عنها أن يعمد الى لفيفة من الطبّـاقِ(١) فيشعلها ، وكان ذلك مبلغ ارتياحهِ لنفسهِ وغاية رضاهُ عن مغبة عمله

ذلكم (جاڤير) ومَنْ ذا الذي ينكر خطر (جاڤير) ؟؟ هو حرب المجرمين ، وفخ الهاربين ، وفضيحة المختفين ، اذا لفظ اسمهُ أمام أشدّ العتاة انقلب على عقبيهِ مذعوراً ، واذا لاح شبحهُ أمام أحد الفارّين

(١) المعروف الآن بالدخان أو التنباك

تقيد في مكانه بقيد من الرهبة

فويلٌ لك يا (مادلين) من هذه العين التي تترسم أثرك وتلك الاذن التي تتسقط خبرك ، ولا أحسبك الا واجداً في نفسك ما يجده لك ذلك الرجل في نفسه

فأنت بالذي في قلبك عالم بما في قلبه ، وان كنتَ قد تحفظت ما شئت ، وصابرتهُ ما استطعت ، وتكلفتَ السكون عند لقائه ، وتحاميت طريق صحبتهِ وجفائه ، وزكنتَ منه على مثل ما زكن منك ، وسألتَ ضميرك عنه بمقدار ما سأل ضميره عنك

ولبثت تلك الحرب الخفية قائمةً بين هاتين النفسين وكلما فتح جافير باباً من الدهاء أبطله عليه مادلين بقوّة الصبر والجلد حتى تزعزعت عزيمة الاول ولزم بيتهُ ثلاثة أيام ، وكاد يأكل مقراض اليأس خيوط آماله ، وأوشك أن يعتقد بحلول الفشل في مساعيه وأعماله

واتفق ذات يوم أن أحد سائقي العجلات خرج غِبَّ سماءٍ ، ومعه عجلة يجرُّها جواد

فانطلق بها في طريق كثير الوحل ، فغارت فيه قوائم الجواد ، وأكبَّ لوجهه ، وسقطت فوقهُ العجلة ، فبترت عظم ساقيه ، وانقلب السائق تحتها ، فاستقرّت فوق صدره ، فجعل يستغيث ويستنجد ، وهو مشفقٌ أن يبتلعهُ الوحل

فهبَّ الناس لجهة الصوت ووقفوا ينظرون اليه ، ولا يقدم أحد على الاخذ بيده

وأقبل (مادلين) مهرولاً فنظر الرجلَ تحت العجلة يسوخ في الطين شيئاً فشيئاً ، وهو كلما اضطرب طلباً للخلاص كان اضطرابه مساعدًا على وأدهِ في الطين حياً

فأشار اليه مادلين بالسكون ثم التفت الى الجماعة وقال أيكم قويّ العضل جليد القلب يدخل تحت تلك العجلة فيرفعها بظهره وأجره على ذلك خمسة ذهباً فوجم القوم جميعاً فقال مادلين اني أرى الوقت ضيقاً وأرى أجل هذا الرجل أضيق منه فلا تخنّسوا عن مساعدته ولمن يفعل ذلك منكم عشرة ذهباً وان أبى الا المزيد فعشرون

وما كاد يأتي على تلك الكلمة حتى سمع من ورائه رجلاً يقول ان القوم لا تنقصهم الارادة ولكن تنقصهم القوّة

فالتفت مادلين ليرى القائل فاذا به جافير وكان لم يلمحه عند قدومه

فحدق فيه جافير وعطف قائلاً : وليعلم سيدي الشيخ انه ليس على ظهر الارض من يقوى ظهره على رفع تلك العجلة اللهم الا اذا كان من العمالقة أو من أولئك السجناء الذين قضوا شطرًا من

حياتهم في سجن تولون

فغض مادلين من بصره واستشعر الخوف لاول مرة وعلم أن جاڤير لم يقل ذلك الا تعريضاً به وتقريعاً له ولكنه غالب نفسه حتى ملكها

ثم التفت الى الجماعة ليرى أيهم أقدمُ على هذا العمل ولما لم يجد معيناً جثم على الارض ولم تكن الا جولة فكر حتى رآه القوم تحت العجلة منبطحاً على وجههِ وقد حاول ان يجمع بين مرفقيه ويقرب بين ركبتيهِ ليعتمد عليهما في رفع تلك العجلة فعالج ذلك مرتين ولم يفلح فخفقت قلوب الجماعة اشفاقاً عليه وظنوا انه لا محالة هالكٌ فصاحوا بهِ اولى لك ان لا تطرح بنفسك ذلك المطرح من التغرير وإنا نناشدك الله ان تستبقي حياتك

وقال له سائق العجلة وهو تحت كَلكلِ الموت اني أدعوك بالله ان تنجوَ بنفسك فاني ميت ولا عاصم اليوم من أمر الله

كل ذلك ومادلين صامت لا ينبس والقوم باهتون من عملهِ والعجلة لا تنفك عن الهبوط حتى تعذّر عليهِ الخلاص وأنقطع خيط الأمل من نجاتهِ

وان القوم لَيحفزُ اليأس احشاءهم واذا بهم يرون العجلة وقد تحلحلت وجعلت تهتز فوق ذلك الطود الذي رسخ تحتها وأخذت

تصعد بعد ذلك الهبوط وسمعوا صوتاً قد صحله التعب يدعوهم الى نجدتهِ ويقول لهم اعينوني بقوَّةٍ فقد امكنني الله منها

وكان ذلك صوت مادلين فأوفض القوم اليها وانتزعوها من مكانها وأفلت السائق من مخالب الموت والموت خزيان ينظر

وكان هذا السائق يدعى (ڤوشلفان) وهو من أعداء مادلين الذين أكل الحقد صدورهم ونهش الحسد قلوبهم

وقد كان في أوَّل أمره جندياً ثم صار تاجراً فأثرى ثم أملق حتى صار من سائقي العجلات

وكان يبيت وهو يتقلب على جنب الحرَدِ من الحسد كلما فكر في مادلين وفيما صار اليهِ أمرهُ من الثروة والجاه ويقول لنفسهُ لقد قدم مادلين وأنا تاجر وهو أجير فأصبح بحيث يُحسد وأمسيت بحيث اكد

ومن هنا كان مبعث حقده عليهِ ومثار حسدهِ لهُ

ولما ثار مادلين من تحت العجلة بعد انزعاجها عن مكانها وهو باهت اللون ناضح الجسد ملطخ الثياب ممزقها تحامل ڤوشلفان حتى اقترب منهُ وانكب على ركبتهِ يقبلها وجعل يدعو لهُ

كل ذلك والقوم يبكون من هول ما شهدوا وينظرون الى ذلك الوجه الذي بانت فيهِ آثار الجهد والعناء ولاحت عليهِ سيمى

السرور والارتياح وجافير يكاد ينشق غيظاً في مكانه ومادلين يلقى عليه نظرات مطمئنةويلمحه لمحات معنوية

ولما انقضى ذلك المشهد وذهب كلٌّ لوجهه أمر « مادلين » بفوشلفان فحمل الى مصنعهِ وأفرد له فيه مكاناً ووكل به اثنتين من الممرضات واوصى بالعناية به وجعل يعوده طرفي النهار حتى أبلَّ من مرضه

ثم وجه اليه برقعةوقعَّ له فيها بأربعين قطعة من الذهب وكتب بها انهقداشترى عجلته وجواده بهذاالقدر من المال (وان كان الجواد قد نفق على أثر سقوطه والعجلة قد تحطمت منذ ذلك اليوم)

ولما أبلَّ فوشلفان من مرضه كان لا يزال يشكو بعض الالم باحدى ركبتيه فحال ذلك بينه وبين الرجوع الى حرفتهفلذلك أقامه مادلين حارساً لبستان دير النساء بباريس

وبعد تلك الحادثة بقليل وجهت الحكومة الى مادلين ببراءة وظيفته

وكان جافير كلما لمحه حاملا لتلك الشارة التي تأذن له بالتصرف المطلق في شؤون وظيفته كادت تطير شظايا نفسه حسداً

وشعر من نفسه بذلك الشعور الذي يقع في نفس الكلب اذا وجد ريح الذئب مختفياً تحت ثياب ربه . ومن ثمَّ جعل يتحامى طريقه

ولا يلقاه الا مكرهاً على لقائه

فكان اذا لقيه لقيه لقاء المحتشم المستكين واذا خاطبه خاطبه خطاب المتحفظ الرزين

هذا ما كان من أمر جافير ومادلين ولقد طال عليك أيها القارئ انتظار حديث فانتين وطال عليها الوقوف امام تلك القرية

قدمت فانتين بلدتها وما نسيت ما كان من أمرها فوقفت تنظر اليها وقد تنكر لها كل شيء ولم تر من تعرفه ولا من يعرفها فسارت تعروها دهشة الغريب حتى وقف بها نصيبها على باب مصنع مادلين فارتاحت لرؤية وجه ذلك الباب كأنما هي ترى وجه صديق لها وعرضت نفسها على رب المصنع فأمر بضمها الى قسم النساء فكانت تصيب الكفاف من الرزق لجهلها بتلك الحرفة الجديدة وكان أجرها في اليوم لا يتجاوز حد القوت ولكنها قد بلغت على كل حال مناها وامست تعيش من كسب يدها ففرحت بصيانتها لماء وجهها وحفاظها لعرضها وانكمشت في العمل حتى برعت فيه وزادوا لها في الاجر فأمكنها ان تكتري لها مكاناً صغيراً وان تبتاع بعض الاثاث بالقرض والنسيئة فبدأت بشراء مرآة كانت تنظر فيها عند كل صباح الى نضرة شبابها فتطرب كلما تمثل لها عسجد شعرها وتراءى لؤلؤ ثغرها وكادت تنسى هموم ماضيها ولم يعد لها من هم غير التفكير في طفلتها

ونيا سيكون أمرها في مستقبل أيامها

وكانت تحرص كل الحرص على ارسال النفقة في حينها وتبالغ في كتمان أمرها وتحتجر من الناس غاية الاحتجار وتتحفظ من ان تسقط منها لفظة تشير الى ذكر «كوزيت» او محل وجودها او ان تخوض في حديث يجر الى ذكر الزواج ولكن أبى النحس الا أن يلازم طالعها فانها كانت كلما أرادت ارسال النفقة الى طفلتها في كل شهر استدعت احد الكتاب فاستكتبته كتابا الى اصحاب النزل وذلك لجهلها بالكتابة كما قدمنا فكانت تستدعيه عند قدوم الليل والليل اكتم للسر فولد ذلك في نفوس صواحبها بالمصنع بعض الشكوك وامتد انظارهن الى مراقبتها فجعلن يتحدثن فيما بينهن بأمرها ويقلن مالهذه الرسائل بدّ من سبب وما بال هذا الكاتب لا يأتي الا اذا أتى الليل وما بال فانتين كاسفة البال تنزوي في طريقها عن الناس وتتحامى في المصنع الاختلاط بنا

ولا تعجب أيها القارىء فان أشدّ الناس مراقبة للناس من كان ابعدهم نفعاً من وراء تلك المراقبة فهو يراقب لغير نفع يجذبه او مال يكسبه ولكنها غريزة فيه تثيرها الرغبة في الوقوف على أحوال غيره فتراه ينفق المال ويستخدم الرجال ويمالىء كل من كانت له صلة بمن يراقبه من حاشيته وخدمه وأصحابه ويكدّ ذهنه وينصب بدنه

ويصرف التفيس من وقته في تسقط الخبر وتلمس اللفظ ويجمع كيده لاستبطان الامر ويرصد نفسه لاستطلاع السر فيخالط السوقة ويجالس أهل المنزلة التي هي دون منزلته فيعقد لهم مجالس الشراب وينفق عليهم ما يضن بانفاق بعضه في سبيل البر وطريق الخير ويكمن تحت الليل في زوايا الطرقات لا يبالي بسقوط الجليد ولا يعبأ بوخز القرّ ويجلد على احتمال تلك المشاق حباً في الاستطلاع ورغبةً في الاكتشاف حتى اذا ألمّ ببعض الامر او انكشف له جانب السر جلس الى أصحابه في الاندية يحدثهم وهو يميل بسالفته تيهاً ويثني عطفه كبراً كانه قد اهتدى بابحاثه تلك الى اكتشاف سر من أسرار الكون

كذلك كان حال فانتين مع تلك النسوة اللاتي يعملن بذلك المصنع فانهن قد افرطن في مراقبتها فعددن انفاسها ورقبن حركاتها وذهبن مع الظنون في امرها لحنها مرة وقد وقف الدمع في عينها موقف الحائر فانتحت ناحية من المكان وجعلت تمسحه في خفية فتغامزن عليها بالعيون وأصبح الشك عندهن يقيناً ولم يكن علم الله بكاءها الا لذكرى طفلتها وما كان منها مع ذلك الرجل الذي غابها على أمرها

وما زلن يوالين البحث حتى اهتدين الى معرفة العنوان الذي

تكتب به واجتمعن بذلك الكاتب الذي كانت تستخدمه في الكتابة فانطلقن به الى احدى الحانات وكان الرجل خفيف الحال مدمناً للراح يبيع ما في فؤاده من السر بكأس الخمر فخططن عليه بالشراب حتى استفرغن ما عنده من اسرار تلك الكتب فعلمن أن «لفانتين» طفلة وانها غادرتها بنزل في قرية (مننفرمي) وما يكتفين بما وصل اليهن من ذلك العلم بل بعثن منهن رسولاً يرى الطفلة رأي العين وكان هذا الرسول شيخة من ذوات الاسنان نسجت الشيخوخة على وجهها طبقة من التشويه فزاد ذلك في دمامة خلقتها وكان زوجها راهباً قد فرَّ من أحد الاديرة فتزوج بها ثم مات عنها منذ زمن طويل فلبثت بعده ارملا الى هذا العهد وكانت تعيش من فضلة قد بقيت لها

تلك (مادام فيكتريان) التي كانت رسولهن الى قرية « مننفرمى » وهي التي قالت لهن عند عودتها لقد ازالت الشك باليقين ورأيت الطفلة رأي العين وانفقت على ذلك مئة واربعين قرشاً

واستغرقت تلك المؤامرة زمناً طويلاً حتى استوفت «فانتين» عمر العام وهي بذلك المصنع وفي ذات يوم دخلت عليها كبيرة دار الاجيرات فناولتها مائتي قرش وقالت لها ان رب المصنع يأمرك بالتحول عن هذا المكان وان أحسنت الى نفسك فلا تسكني القرية بعد اليوم

فجمدت « فانتين » في مكانها وحاولت الكلام فخانها الصوت ونظرت الى وجه التي تحدثها فلم تلمح فيه للعطف مجالا فخرجت تمشي على استحياء وهي أسوأ ما تكون حالاً وكان ذلك في الشهر الذي لؤم فيه صاحب النزل واشتط في طلب النفقة منها فانكفأت الى حجرتها وجلست تفكر فيما سيؤول اليه أمرها وكانوا قد أشاروا عليها بمواجهة الشيخ « مادلين » لتنفض اليه جملة حالها لعلها ان تصيب منه قلباً رحيماً فمنعها الحياء من ذلك وقالت في نفسها لقد أمر بابعادي لأنه عادل وجاد عليّ بمائتى قرش لانه كريم وما عسى ان يفعل الرجل معي اكثر من ذلك وقد وقع في نفسه ما انهي اليه من أمري

وكان « مادلين » بريئاً من ذنبها لانه لم يكن من عادته الدخول الى دار الاجيرات فلم يشرف على أعمالهن وقد عهد بذلك الى واحدة منهن عرف فيها الاستقامة وصفاء السريرة فاقامها رقيبة على الاجيرات ومنحها التصرف المطلق في أمورهن وكانت تلك المرأة بمنزلة من الامانة والرفق في العمل واسداء المعروف ولكنها لم تبلغ المرتبة التي اذا عرف أهلها بوجود الذنب ذكروا العفو عن المذنب فهي التى باشرت التحقيق في أمر « فانتين » وهي التي حكمت عليها وقامت بامضاء ذلك الحكم وطلبت من مادلين التصديق عليه

كل ذلك يجرى بالمصنع في قسم النساء ومادلين لا يعلم منه

شيئاً ولا عجب فان امثال هذا الرجل من أصحاب النفوس الزكية والقلوب النقية يتركون النظر في شؤونهم الى من يرون فيه الاخلاص ولا يحاسبونه يوماً على ما يأتيه من ذلك العمل

ولما غادرت فانتين المصنع على أثر تلك المؤامرة لم تر بدّاً من البقاء في القرية لانها قد ابتاعت اثاث منزلها بالقرض والنسيئة وقد بلغ التاجر ما نزل بها فانذرها بسوء العاقبة ان هي غادرت القرية قبل وفاء دينه وكذلك كان حالها مع ربة المنزل الذي استأجرت فيه قاعتها على انها قد قسمت بينهما ما أحسن به عليها مادلين واستمهلتهما في المقاضاة فيما تبقى عليها وردت الى التاجر بعض ذلك الاثاث وحفظت منه مالم تر بدّاً من حفظه وعولت على العمل فطرقت جميع الابواب والتمست ان تكون خادماً باحدها فلم يكن نصيبها غير الرد والاعراض فعادت الى منزلها تتعثر في ذيول الخيبة ومازالت تطالب فكرتها في استنباط عمل تعيش من ورائه حتى فتق لها الذهن ان تعاود حرفه الخياطة فكانت تخيط الاقمصة لعساكر الحرس فتصيب في يومها اثنى عشر صلدياً تحفظ عشرة منها لنفقة (كوزيت) وتنفق اثنين في احراز مسكة الحوباء.

وكانت تساكنها بتلك الدار عجوز من البائسات قد مارست صنوف الشقاء وتقلبت بها احوال العسر والمتربة فجعلت فانتين تجلس

اليها في كل يوم وتأخذ عنها دروس العيش في الخلة والضيق

وليعلم القارىء ان وراء العيش امن القليل منزلة أخرى وهي العيش من لا شيء وان هؤلاء البؤساء الذين شبوا وشابوا بين شظف العيش ونكد الحياة لهم فنون وأساليب في الانتفاع باليسير من المال فتراهم يتلمسون من وراء الدانق منافع عديدة ويقضون بالسحتوت الواحد حاجاً متنوعة

ولقد اصبحت فانتين بفضل تلك الدروس بارعة في فن الحياة فاستغنت عن النار في الشتاء وعن اللحوم في الطعام وعرفت كيف تجعل من ثوبها غطاءها ومن غطائها ثوبها وادركت كيف تقتصد ضوء شمعتها فتأخذ طعامها على ضوء الشفق أو على أشعة النور الذي ينفذ من طاق جارها وكانت تقول لجارتها وهي تحدثها اني لاقضي عامة النهار وثلثي الليل وأنا اخيط فأكاد أصيب بذلك ما أتبلغ به من الخبز اليسير واني بحمد الله حزينة القلب كسيرة الخاطر ومن كان حاله كحالي من الهم كان خليقاً ان لا يتناول غير القليل من الزاد فأنا أتبلغ بذلك الخبز اليسير وأتأدم بهذا الهم الكثير وأجد منهما غذاء امسك به النفس واحفظ به الحياة

وفي تلك الضائقة التي يخرج احتمالها عن طاقة البشر كانت تمر بفانتين ذكرى طفلتها .فتجد لذلك سروراً لا يعادله عندها شيء

فيدعوها الشوق اليها الي طلب استحضارها من ذلك النزل ولكنها تراجع نفسها بقولها . اي ذنب جنته تلك الصغيرة حتي يقضى عليها ان تشاطرني هذا البؤس وهب ان هذا الذي أنا فيه لم يكن بؤساً فمن أين لي نفقة الطريق ووفاء ما عليّ من الديون لاصحاب النزل حتى استخلصها من أيديهم ان هذا لأملٌ بعيد

وكانت تلك المرأة التي علمتها دروس الحياة من ذوات النفوس العالية وأهل العفة والقناعة تسدي المعروف الى الفقير والغني وتفعل الخير لاجل الخير ولا تعلم من الكتابة غير رسم امضائها وتقول ان الله موجود ولا تعرف غير ذلك

وكم من فضائل كامنة في نفوس أمثال هؤلاء الذين نزل بهم الدهر الى الحضيض ستعلو ذات يوم الى عنان السماء فان لكل يوم غداً

ولبثت فانتين كثيرة الخجل شديدة الحياء من نظر الناس اليها وهي على تلك الصورة من خفة الحال ومظهر العوز والاحتياج فلزمت بيتها زمناً طويلاً وكانت اذا دعتها الحاجة للخروج لابتياع شيء أو قضاء أمر مشت في الطريق وهي كاسفة البال تود لو ساخت بها الارض لتختفي عن انظار المارة وكانت تشعر كانهم يترسمون بالنظر مواقع أقدامها ويشيرون بالاصابع الى رث ثيابها فتغض من نظرها وتحث قدميها للهروب من تلك النظرات التي اخترقت إهابها

وأدمت فؤادها

ولو كانت تلك البائسة بباريس لما لفتت اليها نظرًا ولا استوقفت ناظرًا ولأرخت عليها ظلمة الفقر سدولا تحجبها عن العيون ولكن في أمثال تلك القرى الصغيرة قلّ ان يجد الناس ما يشغلهم عن مراقبة الناس

ومرت على فانتين ثلاثة أهلة وهي تروض نفسها على احتمال ذلك الازدراء كما راضتها على احتمال مرّة الشقاء حتى نضب ماء الحياء من وجهها وزال ذلك الشعور من نفسها وصارت تمشي في الطريق وهي طارحة رداء الخجل لا تبالي بتلك النظرات ولا تحفل بهذه اللفتات وكانت تلازم ثغرها ابتسامة الله أعلم بما يمتزج بها من مضاضة الحياة وتنأى بجانبها عن الناس شامخة الانف عالية الرأس

وكانت كلما لمحتها مادام (فيكتريان) حاسبها الله وهي تمرح في قدّ تلك الحلة والضيق وتمشي هذه المشية في الطريق حمدت مغبة عملها واثنت على نفسها اذ حالت بين تلك البائسة وبين الهناء وردتها بفضل سعايتها الى ذلك الشقاء ومن الناس من لا يجد سروره الا في ألم غيره

نفوس فطرت على الشر فلا يصفو لها مورد السعادة ما لم تشبه شائبة من الاذى

قلنا أن فانتين كانت تقضي عامة النهار وثلثي الليل وهي عاكفة على العمل فلم تزل تلك حالها حتى اوهن الافراط من عزمها وزاد في ذلك السعال الذي كان جالساً في صدرها فاشتدت بها الضائقة اشتداداً يعزب معه الصبر

ولكنها كانت كلما مشطت عند الصباح شعرها بذلك المشط الذي أسقط الدهر أسنانه فكان اشبه الاشياء بثغر الأدرد فنظرت جمال فرعها المرسل ارسال الحرير اختلست رقدة من عين الدهر ومدت يدها لمصافحة السرور

وكانت قد خرجت من المصنع في أخريات الشتاء فانصرم الشتاء وأنطوى على اثره الصيف ودار الفلك دورته فاذا الشتاء التالي يقرع باب فانتين قرعاً ينذرها بيوم قصير وجوّ مطير وضباب مقيم وافق مظلم ونهار يعثر صباحه بمسائه وليل يجهل أوله آخره وشمس رمداء وسماء مكفهرة الارجاء وعيش كثير المؤونة وفصل هو حرب الفقير وهلاك الضعيف يقل فيه العمل وتكثر النفقة فتطلب المعدة الغذاء والجسم الرداء ويتلمس المقرور النار و يضيق بصاحب الكفاف رحب الدار

فصل يحول الافئدة الى صخور ويرد السائل الى جماد قد دهم فانتين وهي بين الخلة والقلة فزاد في دينها وكساد حرفتها فسقطت عليها مطالب الغرماء سقوط القضاء والح صاحب النزل قاتله الله

في طلب النفقة والتماس الزيادة فيها حتى زهدت فانتين في حياتها وحبب اليها قرب يومها

وجاءها منه ذات يوم كتاب يذكر فيه أن ابنتها أصبحت عارية الجسد وأنها ان لم تداركها بارسال أربعين غرشا لا بتياع لباس لها فهي هالكة لا محاله

فوقع ذلك الكتاب في نفس فانتين واحزنها طول يومها ولما كان المساء انطلقت الى حانوت حلاق فوقفت امامها ونزعت ذلك المشط الذي كان يمسك شعرها فانسدل على ظهرها وستر اردافها فصاح الحلاق لله ما أجمل ذلك الشعر فقالت فانتين انظركم تدفع من الثمن اذا بعتكه قال أربعون غرشا قالت عجل بقصه فقام الرجل الى مقصه وأهوى به على شعرها وأعطاها الثمن فاشترت به لساعتها لباسا وبعثت به الى طفلتها فساء ذلك صاحب النزل وأغضبه لانه كان يطمع في الدراهم لا في اللباس فأعطاه الى احدى بنتيه وبقيت كوزيت في جلدها تقضقض من البرد وترتعد من الجليد كل ذلك وأمها تظن أنها باتت تمرح في ذلك الكساء الجديد ولا علم لها بما تقاسيه من ذلك الالم الشديد

وكانت فانتين كلما أحست بألم فراق شعرها وجدت لذلك بعض العزاء لانها لم تفقد ذلك الشعر الا لتحفظ حياة تلك الطفلة

وتمرّ بها ساعات تذكر فيها حسن شعرها فينقبض صدرها وتمتلىء حقداً على ما يحيط بها ويمتد ذلك الحقد حتى يتناول (مادين) ذلك الذي كانت تشاطر الناس محبته بالامس قد أصبح اليوم من أبغض الناس اليها لكثرة ماسمعت من أنه هو الذي أمر بابعادها وأنه أصل شقائها وسبب بلائها

وكانت كلما مرت امام ذلك المصنع تكلفت السرور والابتسام وجعلت تغني غناء رخيِّ البال رضيِّ الحال توهم بذلك أهل المصنع أنها اليوم أنعم منها بالاً بالامس وما خفي عن أصحاب المصنع أمرها فقد قالت احدى عجائز الاجيرات حين لمحت فانتين وهي على تلك الحال ويل لهذه الفتاة من سوء المصير

وما زال الشقاء يجر على فانتين الشقاء حتى حدثت نفسها ان تتخذ لها عشيقا جديدا وقررت أن يكون أول من تلقاه في طريقها كائنا من كان

فوقف نصيبها على موسيقار رقيق الحال غليظ القلب عاطل يتكفف وسائل يستكف لا يعرف العشق ولا يفقه معنى المداعبة فطارحته فانتين حديث الغرام فلم تره يحن الى شيء من ذلك على أنه ما لبث ان هجرها بعد ان ضربها ونهرها

فخـلا فؤادها من كل حب الاحب طفلتها فكانت تراها في

ظلمة ذلك اليأس كنجمة تلمع في سماء أمالها نقول أمالها لانها كانت تخلو بنفسها فتحدثها بتلك الامال التي تلوح لها بوارقها في جو الخيال

ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لأطاقت حمله ولكن صاحب النزل كان يزيد في ألمها ويروعها كل يوم بطلب جديد

كتب لها ان ابنتها مريضة محمومة وانها ان لم تسارع بارسال قطعتين من الذهب لوقايتها وعلاجها فانه يخشى عليها عادية الموت ولا تسل عما حل بها حين اخذ نظرها ذلك الكتاب فقد خرج بها الالم عن حد الادراك فجعلت تضحك وتهذي وخرجت تطفر في الطريق طفر الاطفال وتضحك ضحك الابله المعتوه وتقول لنفسها قطعتان من الذهب اللهم غفرا ترى ان هولاء القوم لا يعقلون

ولم تزل كذلك حتى وقفت على لفيف من الناس قد التفوا حول طبيب الاسنان يعرض عليهم اسرار صناعته وما يلتحق بعلاج الاسنان وتنقيتها ونزع المتأكل من الاضراس وغير ذلك فاندست فانتين في غمارهم وهي لا تزال على ذهولها تضحك ولا تعي فصاح الطبيب حين لمح لؤلؤ ثغرها اتبيعينني أيتها الفتاة ثنيتيك بقطعتين من الذهب قالت فانتين وما الثنيتان ايها الطبيب قال هاتان اللؤلؤتان اللتان تلمعان بمقدم ثغرك فصاحت فانتين غفرانك اللهم ان هذا لهو الضلال المبين وكانت بجوارها عجوز درداء تسمع كلام الطبيب

فقالت تكلم نفسها قطعتان من العظم بقطعتين من الذهب لله ما اسعد تلك الفتاة على ان فانتين لم تكد تسمع كلام ذلك الطبيب حتى رجعت ادراجها وقد سترت لؤلؤ ثغرها بمرجان شفتيها ووضعت اصبعيها في اذنيها كيلا يصل كلامه الى سمعها وهو مع ذلك يصيح في اثرها ايتها الحسناء تمهلي في الامر واستوزعي فوادك يلهمك القبول واعلمي انك لم تغبني فيما عرضناه عليك من الثمن فاذا كان المساء فاغشينا بدارنا بمكان كذا فوقع كلامه في اذنها رغم اصابعها وزاد في نفورها فانطلقت حتى اذا بلغت دارها عطفت على جارتها العجوز وهي اشد ما تكون غيظا فاخبرتها خبر الطبيب وما كان منه وقالت لقد بعنا الشعر لانه يعود فينمو ولكن ما حيلتنا في الاسنان ومفقودها كما تعلمين لا يعود وهي حلية الثغر ونقطة دائرة الجمال ثم غادرتها وانكفأت الى حجرتها وعكفت على خياطتها ولم تكد تستقر في مكانها حتى ندرت الابرة من يمينها فقامت مسرعة الى ذلك الكتاب المشؤم واعادت قراءته ورجعت الى جارتها تسائلها عن معنى تلك الحمى ونتائجها فقالت لها انها مرض من الامراض يعتري الكبير والصغير وهو اليوم اكثر وقوعا في الاطفال فقالت فانتين وهل يجر هذا المرض الى القبر قالت نعم يجر الى القبر اذا تخلت عن المريض العناية فخرجت فانتين من عندها وقرأت الكتاب مرة ثالثة ولبثت بقية يومها نهباً للهواجس ولما توفى الليل

النهار رآها بعضهم وقد اخذت طريقها الي دار ذلك الطبيب فانتزع اللؤلؤتين وحباها بالقطعتين

ودخلت جارتها في صباح الغد مبكرة اليها فألفتها جالسة فوق سريرها وهي شاحبة اللون ساهية الطرف تنطق بوجهها آثار السهر و يدل تضعضع حالها على اثر نزال قام بينها وبين ليل كان اطول من شعرها واسود من حظها وعلى القرب منها شمعدان قد فنيت شمعته وخلفت على جوانبه شبا كا من دموع أسالها اللهيب وجمدها القرّ

وتقف جارتها امام ذلك المنظر الذي يقطع نياط القلوب جزعاً وتنادي ويلي عليك أيتها البائسة تشعلين الشمعة كلها في ليلة واحدة فما عسى يكون قد نزل بك من الامر ومالي أراك كأنك قد انتفضت من كفن أو أفلت من ظلمة رمس فتلتفت اليها فانتين وقد أهرمتها تلك الليلة الماضية فأخذت من سبابها وبلغت منها مالم يبلغه كرّ الغداة ومرّ العشي عشرة أعوام كاملة فتقول لها ليس بي بحمد الله من شيء ومن هو أولى براحة البال مني وقد أمكنني الله من انقاذ طفلتي من يد الموت بهذا الذهب وتنظر جارتها وهج الذهب بجانبها فتصيح اللهم انها ثروة فمن أين لك هذا وقد عهدتك بالامس لا تعرفين وجه الفضة فتبسم فانتين ابتسامة تنم عن لعاب دامٍ قد لوّث ركني شفتيها وثغرة مظلمة في وسط ذلك الثغر المضيء فتعلم جارتها كما علم القارىء ان تلك الثغرة المظلمة هي مكان تينك اللؤلؤتين

وانطلى خداع صاحب النزل (برئت منه المروءة) على فانتين فوجهت اليه بطلبته ولم تكن طفلتها مريضة كما يرجف ولكنه شرك قد مدّه لاصطياد دراهمها حتى سلبها عسجد شعرها ولؤلؤ ثغرها وأصبحت عطلا من الحلى والجمال فكسرت تلك المرآة التي كانت تجد في النظر اليها بعض الهناء أيام صحبتها شعرها وتحولت عن قاعتها بالطبقة الثانية الي قاعة أخرى بسطح المنزل قد أعدت لسكنى البائسين وكانت ذات سقف مسنّم يرتكز وجهاه على وجه الارض اذا دخل فيها ساكنها البائس انحنى تحت سقفها انحناءه تحت اثقال العيش واعباء الحياة

ولم تكن تشتمل على غير حشية قد طُرحت على الارض وخلقة كانت تسميها غطاء وكرسيّ قد نزع تقادم العهد احشاءه وجرّة كنت ترى الماء فيها تارة سائلا وأخرى جليداً وزهرية قد جف طينها وذبل زهرها — وفتاة قد نزعت نقاب الحياء وعافت زينة النساء تخرج في الطريق وعليها ثوب خَلِقٌ رديم ممزق الاديم قد اهملت رتق فتوقه وأغفلت سدّ خروقه وما أدري اكان ذلك لضيق في وقتها أو لعدم اعتناء منها بامرها وهي تنتعل حذاء قد كشر عن نابه تحت جورب قد نصل عن خضابه يحيط بخصرها نطاق بال مرقّع يكاد إذا تنفست فيه ينقطع

وتنكفئ الى غرفتها وقد بضع الهم من فؤادها بضعة وعبّست الخيبة وجه أملها واشتد الامر وضاق وتقابلت حلقات الوثاق وسطا عليها سعالها سطوة الجبار ولزمها ملازمة غرمائها بالليل والنهار فتقضي فحمة الظلام منفرة المنام سميرة الآلام حاضرة الدموع غائبة الهجوع وتفني شمعة النهار بين وخز الأبر ووكز الفكر وقد قدر عليها الله الرزق فأجراه لها من سم خياطها وهبطت أسعار الأجور فنزل أجرها في اليوم من اثنى عشر صلدياً الى تسعة فاستحال عليها امساك الرمق بهذا القدر اليسير على أن طفلتها وحدها كانت تكلفها فوق ذلك ولو وقف بؤسها عند هذا الحد لقلنا خطب يهون ولكن صاحب النزل قد خرج عن أفق الاعتدال فأرسل يطلب منها أربع قطع ذهبية ويقول لها في كتابه — لقد منينا بأمر طفلتك وصبرنا منك على ما تعلمين فان لم تسارعي بارسال هذا القدر من المال نبذنا (كوزيت) بالعراء وطرحناها في مساقط القضاء فهي ان أخطأها برد الشتاء فليس يخطئها نازل البلاء ولقد أبلّت اليوم من مرضها ولكنه إبلال يعقبه الموت ان فاتك في امرها الفوت

فما الجرح ينكأ به الجرح باوجع في نفس الجريح من ذلك الكتاب في نفس فانتين فانها قالت بعد تلاوته اللهم انك تعلم انني بعت الشعر والاسنان بيمه وكس وصبرت حتى ملني الصبر وقد كانت

لى صبابة عيش تكفيني السؤال فما زالت ترتشف منها الحاجات حتى أنضبتها اللهم لم يبق الا العرض وقد أمست تساومني فيه الايام فلا راد لقضائك ولا مذهب من ورائك

أبى قدر الله الا أن تمزق الفاقة ثوب ذلك العفاف وان لا تركب فانتين غير سبيل الخسار فابتذلت خدرها و باعت عرضها وعرض منها البؤس على هذا المجتمع الانساني أمة فاشتراها عرضها عليه في سوق الألم فابتاعها بكسرة من الزاد وكان فيها من الزاهدين فاف لتلك المدنية غلبت الناس على امرهم وزادت في اسرهم نفس حرة تباع بكسرة وعرض مغبون فيه يتساومون ولا زلنا نسمع على هذه المدينة آيات المدح والثناء وتطن في آذاننا أصوات المرجفين في انحاء البلاد برفع الرق والاستعباد عن رقاب العباد أين كتاب السيد المسيح وأين ما جاء فيه من الحكم الصريح طليتم وجه مدنيتكم

بطلاء من كلماته وأفرغتم فؤادها من حكمه وعظاته فتناول حكمه منكم الظواهر ووقف عن تناول ما في السرائر أوهمتم الناس بانطواء أجل الرق وفاتكم انه وان خف حمله عن أعناق الرجال فقد باتت تنوء بثقله أعناق النساء

تملق المرأة فتجوع وتعرى فتركن الى الصبر والتجمل فيضيق عن ذلك ضعفها فتفزع الى السعي وراء الرزق من أشرق وجوهه فيقعد بها الدهر فتبيع الناس نفسها فيتنافسون في المساومة حتى اذا ظفروا بامتلاك تلك النفس المعروضة في سوق الشقاء سجلوا عليها فعلتها تلك في باب الزناء وتغاضوا عن تسجيلها في باب الرق وهو بها أحق وهي به ألصق

ويل للمرأة من الرجل يسترقها وما يدريه ما المرأة هي وعاء النسل وظرف الحمل هي زينة الحياة وزهرة الجناة هي بيت الجمال وموطن الدلال هي مسكن الضعف ومهبط العطف فيا لله ما اكثر مخازي الرجال

ذلك مثل فانتين في ابتذالها لخدرها بعد ان نزلت من المكروه منزلة ينقطع العقل عن تقديرها ويجمد الذهن عن تصويرها وبعد ان انذرها الدهر بالانسلاخ عن هيئة العالم وانذرها العالم بالخروج عن دائرة الوجود فتكسعت في الضلالة وتبسطت على الأثم وتمرغت في

حمأة الغي فخوى هيكلها من روح الشعور وكتب اليأس على لوح صدرها المثلوج قول ذلك الحكيم لا رغبة ولا رهبة فاصبحت لا تخشى نازلا وأمست لا ترجو نائلا و باتت لا تبالي لانها ما انتفعت بان تبالي .

مرّ بها زمن وهي تصابر القضاء وتنازل الشقاء وتعانق الخطوب وتصافح الكروب وتصبر على ذلك صبراً كان أشبه بعدم المبالاة من الحمام بالمنام فلم تنتفع بصبرها ولم تخرج من عسرها فما عساها تحذر اليوم وهي كالاسفنجة سكن الماء أحشاءها وغمر انحاءها سيان ان طاف بها المحيط أو سقط عليها الندى

توجد بعامة القرى الصغيرة سيما القرية التي تسكنها اليوم (فانتين) طبقة من نشئ الشبان العاطلين الذين يعيشون من وراء دخلهم السنوي — وان أحدهم ليظهر بين أهل القرية بمظهر من

الترف والنعيم لن يبلغه ساكن باريز أو ينفق أضعاف ما ينفق ذلك القروي — وقد جمعت هذه الطبقة في قريتنا تلك من أمثال هؤلاء العاطلين عدداً كبيراً فتراهم يجلسون في صدور المجالس وقد نفخ شيطان العظمة في معاطسهم فجعلوا يتفاخرون بما ملكت أيمانهم — فمن تياه بكثرة رجاله ومن مدلّ بوفرة ماله ومن معجب بحسن سمته وهندامه ومن مولع بالتفنن في أساليب كلامه — يتحرش أحدهم برجال الشرطة فيحفظهم بتعنته حتى يجر الامر الى المشاجرة فيقال فلان لا يعبأ برجال الحكومة و ينطلق الآخر الى التصيد والاقتناص كي ينوّه بذكره فيقال انطلق النبيل الى الصيد — ومنهم من (١) يتورّن ويتزين فهو أنى خطر تأرج المكان بعطره واشتغل النـاس بذكره ومنهم مدمن الخمر ومدمن الجلوس في الاندية حيث يفد السائحون : نعم وفيهم المتغالي في التقليد والمولع بالجديد والذي لا يرى نفسه ظريفاً الا اذا قاد خلفه كلباً وازدرى بنوع النساء فتأنق في التعريض بهن واستهتر في تقريعهن

وكان الظرفاء في هـذا العهد يغالون في البزّة ويتأنقون في الزي وشارتهم يومئذ أردية زيتونية اللون مفضضة الازرار وأحذية تحيط بأعقابها أهلة من الحديد وبكل منها مهماز للجواد شأن الفرسان وعلى رؤوسهم قبعات عالية البنيان كزّة الاطراف فوق شعر مجعد

(١) تورّن اي تعطر فاسرف في التعطر

كثيف وبأيديهم عصي غليظة كأنها الجزوع دع الشوارب الطيال والزيق المرتفع ومنديل الرقبة المرسل على الصدر

أذكر من بين تلك الطبقة المفتونة شاباً لم ينظر مدى عمره سماء باريز ولم يبرح دهره أرض تلك القرية — نشأ بين أفراد تلك الطبقة ففعل شرواهم وذهب مذاهبهم وكان مثله كمثلهم دخل قليل وعقل يسير وسفه يوازنهما ونزق يعادلها

اتفق أن وقف ذلك المغرور ذات ليلة أمام أحد الاندية وفي فمه لفيفة من الطباق وكان ذلك غب سماء وقد انتشرت على وجه الارض طبقة من البرد

وتمر أمامه فانتين وهي عارية الاكتاف وعليها ثوب قصير تتجمل به النساء في المراقص وكانت تلك عادتها منذ نصف عام تعتمد الليل وتركب ذلك الطريق فتقبل فيه وتدبر بعض ساعة كأنها حرسي يحفظ السبيل او جندي أذنب فكان عقابه السير فوق ذلك الجليد جيئة وذهوباً ويتعمد ذلك المغرور كلما مرت امامه اغاظتها ويتحرى اهانتها فيعبس وجهها بكسفة من دخان لفيفته ويرسل عليها شواظاً من الاهانة والسباب فيقول ما أبشع هذا الوجه وما أخلق حامل ذلك الثغر الادرد بالانزواء عن أعين الناس وتسمع فانتين ما يقول وكأنها لاتسمع فتنطلق في طريقها وتواصل سيرها فيه اقبالا وادباراً وهو في

مكانه يكاد يتقطر غيظاً

ويحركه ذات مرة سكونها فينطلق خلفها انطلاق الذئب خلف الفريسة وهو يغتَتُّ من ضحك المغيظ ويدانيها فيهوي بيده الى الارض فيقبض قبضة من البرد وينقض عليها فيدسه بين ثوبها وظهرها وينتشر البرد من ملتقي الكتفين الى مستدق الصلب فتزأر فانتين زئير اللبوة وتنفش انفتال النمر وتنشب أظافرها في وجهه وهي تصيح من فرط الألم بصوت قد صحله إدمان الخمر وأبحّ الحنق ويفزع الناس لجهة الصوت فرادى وثنى فيرون رجلا عاري الرأس يضطرب في يد امرأة مسلوبة الشعر والشعور والرجل يحرص على الانفلات والمرأة تحرص على امساكه وقد رنحته لطماً ولكماً وأتحفته بأنواع السباب والشتائم فلم تبق في اللغة كلمة تشير الى بذاءة أو لفظة تدل على لعنة الا ورمته بها من ذلك الثغر الأدرد

ويقف الناس حولها صفوفاً وهم بين ضاحك وصارخ ومصفق بيديه وكلهم يتساءلون عن مثار تلك المعركة القائمة ويبرز من تلك الصفوف رجل طويل القامة فيجذب المرأة من نطاقها ويصيح بها انطلقي على أثري وترفع فانتين عينها وترى شخص (جافير) فيخفت صوتها وتصفرُّ احداقها وتتزايل أعضاءها وتمشي خلفه بين الذلة والانكسار وينتهز الشاب تلك النهزة فيختفي وينقضي ذلك المشهد

سار چافير يخترق الصفوف وعلى أثره فانتين وأخذ سمته الى مخفر الشرطة فلما بلغه أمر بالباب ففتح و بالشمعة فأوقدت وانتزع من جيبه ورقة وأنشأ فيها يسطر وانزوت فانتين في أحد الاركان كالكلبة راعها مروّع ووقف حول المخفر بعض المولعين بحب الاطلاع ممن شهدوا الحادثة وجعلوا يشرأبون باعناقهم من وراء النافذة رجاء ان يلموا بجانب الامر

وكانت شريعة ذلك العهد تقضي بوضع تلك الطبقة من النساء تحت التصرف المطلق لرجال الشرطة فهم يلعبون بهن ماشاء الهوى و يصادرونهن في حرفتهن المنكودة وحرّيتهن الموهومة

فاكب چافير على الكتابة وهو أشد ما يكون غيظاً وما نسي القارئ ما كان من وصف أخلاق ذلك الرجل الذي ما نمّ قط ظاهره على باطنه ولا وجد التأثر الى نفسه سبيلا ولكنه قد غلب في هذه الفترة على أمره فلاحت بوجهه ملامح الانفعال فأجمع كيده ومثل امامه مدى سلطته ونفث في يراعه سمّ غيظه فكان يكتب وحنقه في عنفوان شبابه وجرم تلك البغيّ يتجسم أمام عينه حتي اذا فرغ من كتابته وتوقيعه نادي بثلاثة من الشرطة وأمرهم ان يقودوا فانتين الى السجن وقال لها ستلبثين هناك ستة أشهر

فارتعدت فرائصها وهمت بالنهوض فخانها العزم فترامت تسحف

بجسمها على بلاط قد طلته نعال الشرطة بطلاء من الوحل وجعلت تضرع اليه وتستدرّ رحمته وتقول ستة أشهر الههم غفراً ان في ذلك لهلاكا لطفلة ليس لها سواي من عائل فاتق الله في ضعفي وراقبه في حياة تلك الطفلة ولو أنك ألممت بمبدأ الامر لتضاءل في عينيك منتهاه فاصرف نظرك تلقاء ظلامتي فان كنت قد أجرمت بعدها فعليّ إجرامي واني لأستعدي بك على ذلك الشاب الذي وترني على غير معرفة مني به — لحتي أسبهل[1] في الطريق فجعل يتحرش بي وأنا أُصابره حتى اذا أعياه الامر عمد الى قبضة من البرد فدسها بين ثوبي وظهري على غفلة مني فوجدت لذلك ألمًا أخرجني عن حدّ الرشد ففعلت به ما فعلت وأنا بمنزلة بين الالم والذهول — وما ظنك أيها الحاكم العادل بامرأة مريضة بباغتها مباغت بمثل ذلك الاذى تحت هذا الليل في هذا الشتاء أتراها كانت تحلم أم تطيش — فان كنت قد ادركني بعض الطيش فان ذلك انما وقع لفرط الالم وضعف التحمل

الا شاهد ممن وقفوا على الحقيقة يأتي فيظهر برآءتي — الا يعود ذلك الشاب الذي اختفى فاعتذر اليه من فعلي وان كان هو البادي بالاساءة . لا منقذ لي من هذا السجن الذي سيجر الى طرد طفلتي من النزل فتموت تحت العراء فيا ليت شعري كيف أغذوها وأنا لا

---

[1] سبهل أي أقبل وأدبر في الطريق لغير شيء وهو ما يسمونه العامة (ضرب بلطه)

اكسب في السجن نصف ما قرّره أصحاب النزل لقوتها فلك الله أيتها الطفلة المنكودة ولي الله من بائسة نزل بها العسر الى تلك المنزلة من الحياة فوالله ما كان هذا الفحش من أمرى ولكن هي الحاجة ترمي بصاحبها الى مرامي الهلاك فلا تفرط علينا وكن من الراحمين

تقول ذلك بصوت خنقة البكاء وانفاس قطعها الشهيق كأنها محتضر قد أخذه النزع وهي عارية العنق مفتولة اليدين وقد أشرق محياها اشراقاً ظهرت معه في أعلى مجالي الجمال — ولا بدع فان الآلام اذا بلغت مداها انبعث من اثنائها نور سماوي وانبسط على وجوه أصحابها فبدّلها تبديلا

ولما فرغت من ضراعتها تماسكت حتى امكنها النهوض ثم دنت منه فقبلت طرف ردائه ولو أنها ضرعت كذلك الى رجل قد قُدّ من حجر الصوان قلبه لذاب لها رأفة ولكنها قد صادفت رجلا بلا قلب فهو لا يعطفه التوسل ولا ينال منه التذلل

أو تدري أيها القارئ ماذا كان جوابه لها بعد الذي سطرناه تحت نظرك — كان جوابه أن قال لها لقد وعيت حديثك فانطلقي الى السجن فيه حكمت عليك وقد استحال غير ما حكمت فلو أن ذلك الديان يتجلى اليوم لفصل القضاء لما قضى عليك بغير ما قضيت

قال ذلك ثم ولاها ظهره فجمدت في مكانها وتحرك الجند وانهم

ليهوون بجرها وما تصل أيديهم اليها اذ وثب من جانب المخفر الايمن رجل ملثم فحسر عن لثامه وصاح بهم مكانكم أيها الجند فمد جافير بصره فاذا به يرى مادلين فحياه تحيةَ الكاره لرؤيته وقال له بصوت الكاظم لغيظه عفوا سيدي الشيخ — وما وقعت تلك الكلمة في سمع فانتين حتى انتفضت في مكانها فدفعت عنها الجند ومرّت مهرولة الى مادلين ولما تبينت وجهه صاحت به وهي تغرق في الضحك أهذا هو أنت ثم بصقت في وجهه وانقلبت الى مكانها فمسح مادلين وجهه وقال لجافير خلِّ أيها المفتش سبيل هذه المرأة

كل ذلك يجري وجافير ينظر وهو متهم لنظره ويسمع وهو مكذب لسمعه وقد قرعت نفسه قارعتان ذهبت أولاهما بصوابه وفلّت الاخرى غرب ارادته فلبث في مكانه برهة اعوزه فيها النطق وافترست طائر حلمه الدهشة والذهول — نظر امرأة تبصق في وجه شيخ جليل والمرأة من البغايا والرجل من أولي الامر فاتهم للوهلة الاولى نظره وشهد بعد ذلك الرجل يمسح وجهه وهو أروح ما يكون بالا ويأمر باخلاء سبيل تلك المرأة فلم يصدق سمعه

ولم تكن فانتين أقل ذهولا منه فانها لم تكد تسمع قولة مادلين حتى دلفت الى الباب وجعلت تعالج فتحه وتتهيأ للخروج وهي تقول

كمن يكلم نفسه أيسرّحونني فلا اسجن ومن ذا الذي يستطيع ذلك ولقد سمعت بأذني الامر بالسجن ووعيت ما سمعت فلئن كنت قد طرق سمعي بعده أمرٌ بالافراج فقد كذبتني الاذن اللهم الا اذا كان جافير هو الآمر اما ذلك الشيخ المريب فليس له من الامر شيء وما أدرى ماالذي حدا به الي الحضور أو ما كفاه طردي من مصنعه وخروجي عن أفق العفة والصيانة وهبوطي الي تلك المنزلة — ولقد كنت اعمل في مصنعه فأصيب رزقي بين العفة والكفاف فأبى الا أن يكون اذناً للسعاية بي فاخرجني حين لا موئل ولا وجه للرزق وحملني بظلمه على ركوب تلك الطريق ويعلم الله اني ركبتها وأنا كارهة لركوبها ولكنها سبيل كل مضطر عديم ولولا ما حملني أصحاب النزل من الديون واشتطاطهم في طلب النفقة لتلك الطفلة وكساد الحرفة التي أزاولها لتماسكت وان زعزعني الدهر وبالغت في تطفيف قوتي الايام والليالي

ويسمع مادلين شكواها فيضرب بيده الى جيبه و ينتزع منه كيسه و يجده خالياً فيرده الى مكانه و يقول لها خبريني كم مبلغ ديونك أيتها الفتاة فتقول له اليك عني أيها الرجل فلست بمحدثة معك ذكراً ثم تلتفت الى جافير فتحاسنه في الخطاب وتنتقص امامه من قدر مادلين وتشرح له سوء مغبتها ان هو قد أصر على حكمه وتستنزل

عفوه وتعوذ به من عقابه وتنتهي بقولها ولاأحسبك بعدالذي عرفت من أمري الا غافرًا زلتي متجاوزًا عن خطيئتي ثم تولي الى الباب وتضع يدها على غلقه

وتيقظ تلك الحركة جافير فيعود الى نفسه ويخرج من جمود كان في اثناءه كالصنم نكسة منكس ويصيح بالجند بصوت تمازجه نغمة القادر يا ويلكم أنفلت هذه الفاجرة من أيديكم وأنتم لا تشعرون ومن ذا الذي أمركم بتسريحها بعد ان أمرتكم بسجنها يا ويلكم ردوها فلتقضين" في السجن أيامها رغم المعارضين

وكان مادلين مصغياً كل الاصغاء لما دار بينهما من الحديث فالتفت الى جافير وقال له اعلم أيها المفتش اني أنا الذي أمر بتسريح هذه المرأة فلا سبيل لك عليها منذ الساعة فاني مررت بمكان الحادثة بعد انصرافكم وتسقطت الخبر فاخبرني بعض من شهد المبدأ والنهاية ان ذلك الفتى هو البادئ بالاساءة ولولا تهاون الشرطة لكان هو الحقيق بموقف هذه الفتاة

فقال جافير وهو يتكلف الكظم لغيظه ويغالب اضطراب نفسه ان تسريحها ليدخل في باب الاستحالة فانها أهانت فتى شريفا وآذت شيخاً جليلاً فلئن كانت قد أعذرت في الاولى فما عسى يكون عذرها في الثانية

قال مادلين أما عن الاولى فقد صدقتك الخبر وأما عن الثانية فان الامر لمختص بي والعقاب لمتعلق بارادتي فأما عفواً بعد وإما جزاء

قال جافير عفواً سيدي ان الامر لا يقتصر على شخصك ولكنه يتناول العدل كله وبمثل هذا العمل وأشباهه ينكس العدل رأسه ويخترم سياج الشريعة

قال مادلين اعلم ان العدل نوعان عدل يجري به الوجدان وعدل تجري به الشريعة ومن كان صادق الوجدان كان خليقاً بالتوفيق الى سبيل الحق ولقد وفقني الله الى استبطان أمر هذه الفتاة وألهمني الوجدان براءتها فلا يستطردنَّ بك جواد العناد في سبيل ايذاءها فأنك لن تنالها بسوء وأنا من الشاهدين

قال اني لأراني غير قادر على فهم ما أسمع وما أرى

قال فلتكن قادراً على الخضوع والتسليم

قال اني لأخضع للواجب وهو يدفعني الى وجوب الاصرار على سجن هذه الفتاة ستة أشهر

قال بل يدفعك الى اخلاء سبيلها فلا تسجن يوماً واحداً

قال جافر أما وقد وقفت بي عند حد اليأس من اقناعك فاني لا أرى بدًّا من الانحراف عن صراط الطاعة ولا يكبرن عليك أمر مخالفتي اياك فأني لأمادُّك حبل المقاومة في شأن هذه البغي وما

وقع لي قبل اليوم ان أقاوم مشيئة الرئيس ولكن المامي بواقعة الحال وتثبتي من الامر ودخول الحادثة في دائرة اختصاص الشرطة التي أنا كبيرها كل أولئك يدعوني الى سجن هذه الفتاة

وما كاد ينتهي من قولته حتى تقطّب وجه مادلين بعد ذلك الانبساط وهبّت من شمائله روائح السلطة فقال له بصوت سبقته الى مخارجه الخشونة وامتزجت باجزاءه الحدة — لقد أسمعتني ان الحادثة تدخل في دائرة اختصاص الشرطة التي أنت كبيرها وأسمعك الساعة ان المادة التاسعة واخوتها الحادية عشر والخامسة عشر والسادسة بعد الستين من قانون العقوبات تقضي بان أكون القاضي المطلق فبناء على صريح تلك المواد أحكم ببراءة فانتين وأمر بتسريحها

وأزيدك بي علماً وأذكرك بالمادة الحادية والثمانين من قانون ١٣ دسمبر سنة ١٧٩٩ فهوّن على نفسك وابرح هذا المكان فحسبك ماسمعت

فاستقبل جافر هذه الضربة الاخيرة بصدر رحيب كما يستقبل الباسل من الجنود أسنة الرماح وانحنى حتى كاد يقابل الارض بوجهه وخرج وما ينظر مابين يديه غماً ومرّ (بفانتين) فالتصقت بعضادة الباب لتخلي له السبيل ولبثت في مكانها كأنها بعض الانصاب وذهلت وحق لها أن تذهل لمنظر تلك المعركة التي قامت بين رجلين علقت

بأذيال الاول نجاتها وكمنَ تحت رداء الثاني هلاكها — هذا يصعد بها الى مراقي الهناء وذاك ينزل بها الى درك الشقاء وهي بينهما كالا كرة اذا قذف بها الثاني الى ظلمة اليأس ردَّها الاول الى نور الامل كأن أحدهما ملكٌ يكاؤها وثانيهما شيطانٌ يحاول أن يتخبطها بمسٍ منه وقد أنزل الله النصر على الملك فكان من الظاهرين

وعجيبٌ أن يكون هذا الملك هو ذاك الشيخ الذي استرسلت فانتين في كراهته وظنته أصل شقاءها . وسبب بلاءها . على انها ما لبثت بعد الذي قد رأتهُ من محاسنته لها وعطفهِ عليها وتحريه سرورها بتسريحها ووقوفه في وجه جافير تلك الوقفة التي قطعت على ارادتهِ السبيل ان أخذت تحاسب نفسها وتقول لي الويل لشَدَّ ما كنت أنفر من ذلك الرجل وأحمل له ضبَّ الضغن وأعزو الى فعله سوء ماوصل اليه أمري من الفحش والتبذل ولقد وترته الساعة ترةً يضيق عنها الحلم فصفح وهو قادرٌ على غير الصفح ولم يفتر نشاطه عن الذود عني والمناضلة دوني فلا أحسبني بعد ذلك الا واهمة في أمرهِ جاهلة مقدار خطرهِ — أوَليس الذي قد غلب جافير على أمره بقادر على أن يحول بلفظة منه بيني وبين الهناء فأموت في السجن حزينة وتموت بموتي تلك الطفلة اليتيمة — اللهم ان هذا هو الخلق

الكريم وتلك هي النفس الزكية

كذلك كانت تحاسب نفسها وحقدها يتحلل في صدرها ووجدانها يستل من قرارة نفسها ذلك النفور الذي سكن فيها حتى أصبح النفور ميلا والبغض حبًا وحتى أدركتها الندامة على سالف فعلها وسوء ظنها بذلك الشيخ الجليل فكاد يأتي على نفسها الخجل والحياء

ولما برح جافير موقفه الحرج التفت مادلين الى فانتين وقال لها وهو يُغَيِّضُ من عبرتهِ ويخفي من حسرتهِ لقد وعيت ماتقولين وما كنت أعلم شيئًا من أمركِ فما منعكِ أن تَفضي الينا جملة حالك يوم أنذروكِ بالخروج من المصنع ولو فعلت لانصفناكِ ولكن أبى الله الا أن يجري القدر بماشاء فأنتِ منذ اليوم مكفية المؤونة بي فاني كافلكِ وجامع بينكِ وبين طفلتكِ ورادُّكِ الى طاعة الله بحفاظك على عرضك وموفٍ ديونك وبالغ بك أقصى ما تودين من العيش فلا تبخعي نفسك أسفًا على أثر ماضيكِ فان صح ما تقولين ولا أخالك الا صادقة فيه فانك لم تخدشي وجه العفاف ولم تعقي الفضيلة وما كنت امام ذلك المطلع على الافئدة الا طاهرة الذيل عفيفة الازار

وما انتهى مادلين من قولته حتى تمثل لها مستقبل حياتها فرأت جنة يميس فيها النعيم وتجري من تحتها أنهار السعادة ورأت نفسها في وسط تلك الجنة تتبوأ مقاعد العفاف وتتكأُ على أرائك الصيانة

وبجانبه طفلتها الوحيدة

وتزاحمت على نفسها جيوش الاماني فخرج بها السرور عن حد الادراك وتراست على يد مادلين تقبلها ثم غابت عن الوجود فأمر بها مادلين فحملت الى دار المرضى التي أقامها بجوار داره فأنيمت فيها وأوصى بالعناية بها وانصرف الى عمله

وكانت الحمى تتمشى في عظام تلك المغبونة في نفسها فمرّ بها قطع من الليل وهي تهذي وتصيح ثم أخذها النوم فنامت حتى أظهر [1] النهار أو كاد وشعرت عند يقظتها كأنها تسمع بجانب سريرها ترديد أنفاس فكشفت جانب الستار فاذا هي ترى مادلين باسطاً ذراعيه شاخصاً ببصره كالراهب المتبتل يضرع الى شيء فوق رأسه فأرسلت بصرها حيث يرسل بصره فعلمت انه يضرع الى صليب كان معلقاً بأعلى الحائط فأكبرت رؤيته وظهر لها في هذا الموقف كأنه هيكل من النور عليه حلة من التقى فكرهت ان تقطع عليه صلاته وأمسكت برهة ثم قالت له بصوت يكاد يخفيه الحياء ما الذي يصنع سيدي هنالك فأجابها وهو يومئ الى الصليب جئت أصلي لذلك الشهيد في السماء ولو أنصف لقال لتلك الشهيدة في الارض

وكان مادلين منذ الليلة الغابرة لا ينفك عن تعهدها والسؤال

---

(١) أظهر النهار اذا كان وقت الظهيرة

عنها فما يستقر في حجرته الا ريثما يعود لتنسم أخبارها فبات بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا ينصرم عمرها وانتابته الهواجس فما احتواه مضجع ولا التقى له جفن بجفن

وننتقل بالقاري من حجرة مادلين الى حجرة چافير فيرى رجلاً قد أقامه الحقد وأقعده الحرد يكاد ينشق غيظاً و يقطر غضباً على أثر تلك الضربة التي تلقاها بصدره الرحيب في مخفر الشرطة — و يراه وهو ينفث نفثة المصدور ويتململ تململ الموتور قد أمسك يراعاً وأنشأ يسطر كلما أمات عليه الموجدة وأوحى اليه الضغن

وفي صباح تلك الليلة بكّر چافير الى صندوق البريد فوضع فيه بيده ذلك الكتاب الذي سطره بحجرته وعنون غلافه الى كبير الشرطة بباريس—وما قرأ هذا العنوان قارئ وكان ممن يعرفون چافير وكتابته الا تنبأ ان الكتاب لا يشتمل على غير التماس الاقالة على أثر حادثة الامس

ولما استشار مادلين دفائن (ڤانتين) وعلم بحقيقة أمرها وألم بأطراف تلك المؤامرة التي كانت سبباً في خروجها من المصنع ونزولها الى تلك المنزلة من الحياة سارع بارسال كتاب الى أصحاب النزل يطلب فيه إشخاص (كوزيت) ووجه اليهم بقدر من المال يبلغ مثلي ما كانوا يطالبونها به وأنذرهم بمرض الوالدة ولزوم المسارعة باحضار الولد

وسقط هذا الكتاب على صاحب النزل سقوط الندى فقال لزوجه وهو يتهلل فرحاً لقد در ضرع تلك البقرة العجفاء (يعني فانتين) وأكبر ظني انها ترتع اليوم في ربيع عشق جديد فمن العجز تسريح هذه الفرصة وما لنا لا نمسك الطفلة حتى نحتلب رسل ذلك الضرع وهذا كتاب عاشقها الجديد ينطق عن ولع ويخبر عن كرم واني لا تنسم منه ريح الاضطرار وأرى بين سطوره جداول يجري فيها الكسب وتسيل السعادة فاحرصي منذ اليوم على تلك القنبرة واحذري ان تطير فان في امساكها إطلاقاً لأرزاقنا ثم قام الى دفتر فزوّر فيه كل ما زعم انه أنفقه على (كوزيت) من أجر الطبيب وثمن الدواء وما زال يرصد الخبيث من أرقام الحساب ما يملي عليه الطمع حتى نيف مجموع ما سطر على مبلغ ما أرسل مادلين

وفي اليوم التالي وجه مادلين الى أصحاب النزل بمبلغ آخر وطلب اليهم المسارعة بارسال الولد فقال الرجل لزوجه ألم أنبأك بما سيكون من أمرهم اذا نحن أحسنا حفظ هذا الكنز الثمين فانظري كيف لم يجد له عزماً على الانتظار فثنى بارسال النقود قبل أن نجيبه على كتابه فلنمسكن الطفلة حتى حين

وكانت فانتين لا تزال على فراش المرض ينطفئ سراج حياتها شيئاً فشيئاً ويدنو منها الموت يوماً يوماً وقد أثارت تلك القبضة من

البرد دفين دائها القديم ففتك السعال بصدرها فتكاً كاد يهدم جدرانه ولولا تعللتها برؤية طفلتها للقيت ربها منذ حين

وما خفي على الطبيب أمرها فانه أنذر مادلين بقرب أجلها وقال له اني أراها هامة اليوم أو غد فان كان لها ولد فلا تحولوا بينهما وعجلوا باستدعائه ان كان من الغائبين فانكم لا تفرغون من ذلك حتى تفرغ من نفسها

فجزع مادلين جزعاً شديداً وأشفق أن تموت الوالدة قبل أن ترى الولد فقام لساعته الى ورقة وكتب فيها الى أصحاب النزل عن لسان فانتين يقول

اذا أتاكم رسولي حامل هذا فادفعوا اليه (كوزيت) وهو يدفع لكم تلك الديون التي تزعمون مطالبتي بها

وارتأى أن يكون هو الرسول الى أصحاب النزل فوضع الكتاب في جيبه وصحت عزيمتـه على السفر فبكر من غده الى دار حكمه وجلس لانجاز شغله وأراد أن لا يترك وراءه من خدمة الحكومة مايشغله عن خدمة فانتين فتسلف الاعمال وأنجز في يومه ما يطالبه به الغد

وانه ليتصفح الاوراق و ينظر في الشؤون اذ جرت جوار بالنحوس وعدت عواد بالشرور ووقع في حساب القدر مالم يقع في حساب مادلين

فقيل له ان چافير بالباب يطلب الاذن بالدخول فوالله مالفظ امامه هذا الاسم حتى مرت به خلجة من الشك تمازجها نزوة من الالم فتطير وتضعضعت حاله وكاد يعجز عن المداراة ولكنه رد النفس على مكروهها فاستقرت وأذن لچافير بالدخول — وكان اذ ذاك جالساً بقرب المدفأة ينظر في أوراق محاضر المخالفات ويعلق عليها ماشاء تعليقه

ودخل چافير فوقف وسلم سلام الخاشع المستكين ولبث واقفاً وراء ظهر مادلين صامت اللسان ساكن الشخص ينتظر الاذن بالكلام كل ذلك ومادلين لم يرفع بصره ولم يحرك جسمه كأنه لا يشعر بوجود ذلك الواقف

ولو أن أحد أولئك الذين أوتوا علم السحنة يأتي الساعة وينظر الى چافير وهو راسخ في مكانه وكان يكون من المخالطين له والواقفين على أسرار طبائعه والعالمين بتقلبات هذا المخلوق الذي بينا نراه في لباس الجندي المحارب اذا هو في ثياب الزاهد الراهب لَرَكَنَ عند رؤيته وتفرس في مخائل سحنته ان هذا الجاسوس الصادق والناقل الامين قد نزل به نازل وحالت بينه و بين نفسه حوائل — وقال لأمرٍ ما وقف عدوٌّ مادلين أمامه وقفة المستسلم المستكين وعهدي به يتحين له الفرصة ويتمنى الغصة

وفي الواقع فقد كانت سحنة چافير تنمُّ عما في ضميره فما مرَّ

بخلجان قلبه شيء ولا سرى بقرارة نفسه وسواس الا وشفت عنه سحنته كما يشف الزجاج عن الماء

قلنا انه دخل على مادلين فسلم منحنيًا ووقف محتشماً وما زال واقفًا خلفه موقف الجندي في صفوف النظام لا تنبعث له جارحةٌ ولا تطرف عين وقد فارقت محاجره تلك النفرة وانجابت عنها ظلمة الشك فامتزج بأشعة بصره نور الاخلاص وجال في محياه ماء الخشوع ونطقت ملامح وجهه عن صبر لم تشبه مرارة وسكون لم تعرُهُ كلفة حتى التفت اليه مادلين فرأى رجلاً تبدو عليه سيما الانكسار وتقرأ في عينيه آية الحزم قد احتشم احتشام الجندي امام القائد والمجرم بين يدي القاضي فقال له ما خطبك أيها المفتش

فلبث جافير برهة وهو صامت كأنه يدعو اليه حصاتَه ثم اندفع قائلاً بصوت تسمع فيه رنة من الحزن تشوبها عزةٌ من الشمم

جئت أنهي الى سيدي خبر جريمة قد وقعت منذ اليوم

قال مادلين وما عسى تكون تلك الجريمة

قال ان أحد عمال الحكومة الادنياء قد رمى بعض سراة القضاة في شرفه وطعن عليه في سمعته فدفعني الواجب الى رفع الامر اليك . قال أتعلم من هما

قال ما أعلمني بهما اما المقترف فأنا واما المقترف عليه فأنت

وما وقع في سمع مادلين الخبر حتى وقع في نفسه شيء من الضجر فتململ في مكانه واندفع چافير في حديثه فقال

اني لأطلب اليك رفع أمري الى الحكومة لأنال من عقابها ما يكفّـر عن خطيئتي ولا تعجبنّ لعدم التماس الاقالة فانني ان فعلت ذلك خرجت خروجاً لا يلحقني معه العـار ولكنني خليق بان أنزل منزلة المجرم الأثيم فأخرج ملوماً مدحورًا — ولقد كنت معي بالامس غائب اللين حاضر الجفاء وأنت من الحق أعزل فلتكُنهُ معي اليوم وأنت شاكي سلاح الحق ثاوٍ بحصن الفضيلة

قال مادلين لقد جعلتني بحيث أرى انك أتيت عظيماً وارتكبت جسيماً ولا أذكر بيني وبينك أمرًا يدعوك الى قول ما أسمع منـذ اليوم ولقد أطلت في اتهامك لنفسك وبالغت في وصف إجرامك فما عسى تكون تلك الفعلة التي تزعم انك فعلتها

قال چافير رميتك في شرفك وخدشت وجه سمعتك فالتمست من كبير الشرطة بباريس إمساكك وسجنك وذكرت له في شقة رفعتها اليه انك مجرم قديم وانك ضالة الشرطة التي تنشدها منـذ حين ولقد كتبت ما كتبت وقسطي ممتلئ من المرّةِ الصفراء وغضبي يفور فوران المرجل على أثر حادثة تلك البغيِّ التي غلبتني عليها ووقفت دونها تلك الوقفة التي قطعت على ارادتي السبيل

ويرجف قلب مادلين عند سماع قوله (مجرم قـديم) ولكنه يتماسك ويستطرد جافير في حديثه فيقول وماحملني على اتهامك أيها الشيخ الا آيات شهدتها وعلامات تحققتها — رأيتك شديد العضل قوي الساعد سـديد الرماية اذا رميت ولمحت بأحد فخذيك فدعا وقد تبينت منك الاولى يوم العجلة وما نسيت ما كان من دخولك تحتها وانقاذك حياة ذلك الشيخ الفاني وتحققت الثانية بتتبع آثارك وتسقّط أخبارك وشهدت الثالثة في مشيتك فألقى في روعي انك جان فالجان)

وتسقط شعبة من مهجة مادلين لذكر ذلك الاسم ويندرُ من أنامله اليراع الذي كان يمسكه فيقول وهو يغالب اضطرابه ومن هو ذلك الرجل فيجيبه جافير هو أحد أولئك الشطاّر الذين يعيثون في الارض ولقد رأيته منذ عشرين حولاً في سجن تولون وهو أشبه الناس بك ثم زعموا انه بعد انصرام أيام سجنه عالج السرقة في بيت أحد العباد وجنى في الطريق على غلام صغير فاغتصب منه ما أدرى أي شيء ثم انه اختفى بعد ذلك فجدّت الشرطة في طلبه وجدّ في اختفائه حتى اذا شجر بيني وبينك الخصام في أمر (فانتين) وخرجت من موقفي امامك بذلك الخذلان حملني الغيظ منك على أخذك بهـذا الرجل ومثل لي الحنق انك جان فالجان وكانت تلك الآيات التي ذكرتها

لك من أكبر البواعث على اتهامك فلا تكن معي من الراحمين

قال مادلين وهو يتبسم ابتسامة الله اعلم بما يكمن في اثنائها من المضض وماذا كان من جوابهم على كتابك

قال كان من جوابهم على كتابي ان رموني بالنزق والجنون وحسبوني محمقاً ولقد أصابوا في رأيهم فيَّ كما أصبت عين الخطأ في رأيي فيك

قال لقد أحسنوا في جوابهم وأحسنت في رجوعك عن وساوسك

قال وأعجب من ذلك ان الشرطة قد أمسكت طريدها وعثرت على ضالتها ووقع چان فالجان في قبضة الحكومة وهو اليوم بالسجن ينتظر حلول العقاب

فأخذت مادلين الارضُ (١) وصاح من فرط ما به وما يريد ان يصيح وكيف كان ذلك

قال قبضوا عليه وقد ظهرَ حائطاً باحدى الحدائق واقتضب فرعاً من التفاح فسيق الى المخفر والفرع لا يزال في يده ثم أودعوه سجن الاحتياط وكادت تختفي حاله فلا تدخل جريمته تلك في غير باب العقاب التأديبي لولا ان أراد الله له سوء العاقبة

---

(١) الارض هي الرعدة

فاتفق ان سجن الاحتياط هذا كان عتيق البناء يريد ان ينقض على من فيه فأمر قاضي التحقيق بتحويل أهله الى السجن العام وكان بذلك السجن رجل من أهل التشطر الذين شبوا وشابوا في أعماق السجون قد أكل سجن تولون شطرًا من عمره وأوشك هذا السجن ان يأكل شطره الثاني — شهدوا منه في آخر أيامه شيئًا من الاستقامة وحسن السيرة فأقاموه سجانًا. ولما جيء بأهل سجن الاحتياط ولمح بينهم سارق العود صاح به ألا ترى اني أعرفك أيها الرجل ألست جان فالجان رفيقي بالامس في سجن تولون.

فقال الرجل اتق الله يا أخي فما أنا بصاحبك الذي ذكرت وانما أنا (شان ماتيو)

ثم ظهرت عليه الحيرة وعراه الدهش وتظاهر بالبله والجمود (وقد يحسن أمثال هؤلاء أنواع المكر والخداع) فبعث كلام السجان الشك في نفوس الشرطة ففحصوا عن أمره وراجعوا لوح أعماله فاهتدوا الى معرفة الارض التي نبت فيها والحرفة التي كان يزاولها فاذا هو مشذِّبٌ للشجر قد اختفى أثره وانقرضت أسرته وكان آخر عهد الناس به في قرية (فافيرول) — واجهدت الشرطة نفسها في الوقوف على أثر تلك الاسرة فلم تفلح فعمدوا الى البحث عن من كان معه في السجن بذلك العهد فعثروا على اثنين ممن حكم عليهم

بالخلود في السجون فأشخصاهما الى حيث يوجد فلم يلبثا ان عرفاه كما عرفه ذلك السجان

وصادفت الشقة التي رفعتها بشأنك فراغهم من هـذا الامر فكتبوا اليّ ما كتبوا ورموني بالنزق والتسرع فكبر عليّ الامر وقلت في نفسي لعلهم خدعوا في أمر هذا الرجل فتالله لاذهبنّ لأراه رأي العين فَرُغتُ روغة فاذا أنا هناك فنظرت چان فالجان ورأيت نفس الرجل الذي شهدته في سجن تولون منذ عشرين حولا ولم يعد عندي مجال للشك ولا مسرب للوسواس وعلمت اني جنيت عليك جناية يضيق عنها العفو فلو انني كنت موفقاً في العمل وكنت أنت مكان ذلك الرجل لسجل عليك الخلود في السجن وانك لتعلم كيف يكون عقاب العائد الى الجريمة سيما ان كان من أولئك المراقبين

قال مادلين وهو يتعلل بالتشاغل بالنظر في بعض الأوراق ويقهر نفسه على التجلد والثبات مالنا ولهذا الحديث فان بنا من الاشتغال بشؤننا مالا نفرغ معه الى الاشتغال بامر الغير -- اذهب يا چافير الى فلانة التي تبيع الخُضَر بزاوية المكان الفلاني وَمُرْها ان ترفع ظلامتها الينا. ثم أمره باوامر أخر فقال چافير وددت لو كانت لي في الوقت فسحة فاقوم بامضاء أمرك فاني على عزم الرحيل في هذا المساء لأشهد غدا مع الشاهدين فان غداً ليوم سيكون له ما بعده —

يبرم فيه أمر چان فالچان و يعلو الحق على الباطل وتفلت الناس من شر ذلك الشيطان الرجيم

فاسود في عين ما دلين ما بينه و بين چافير وقال وهو يتكلف السكينة أفي غد يخاصمون هذا الرجل قال نعم – قال وكم يمتد أجل ذلك الخصام – قال يوم أو بعض يوم –قال حسبك ثم أذن له بالخروج فلبث چافير في مكانه وقال اني لاطلب اليك الاقتصاص مني

فرفع ما دلين رأسه وقال اني أرى فيك حصافة وأرى لك عقلاً ومن كان مثلك كان حقيقاً بالتكريم وكان سبيله ان يعان على أمره وان يؤخذ بيده في زلته فلقد عنَّ لنا ان نقرك في وظيفتك ورأينا ان الامر أيسر مما في نفسك فدع عنك هذا الاغراق في الطلب واستغفر لذنبك ان كنت من الخاطئين

فرفع اليه چافير طرفا قد جال في انسانه الاخلاص ونطق عما يكمن في نفسه من الوجدان

وقال بصوت قد استمد السكون من جأشه واستعار الرقة من شعوره انني لمجرم حقيق ان يؤخذ بجريرته فلا أرى فيَّ موضعاً للسماح

قال ما دلين ان كنت قد أجرمت فما وقع اجرامك على

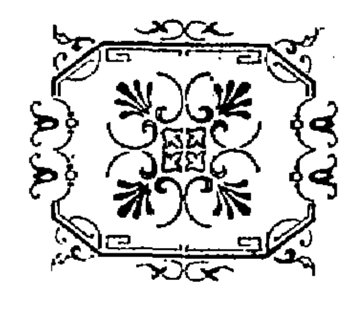
غيري وما كان لاحد ان يخاصمك وأنا من الصافحين

قال عجبت لمثلك كيف يصفح عن مثلي وقد حاولت الايقاع بك وعملت على كيدك وسلب نعمتك فخنت فيك الاستقامة وعققت الفضيلة وأحفظت العدل ولو انني فعلت ذلك عن غير رغبة في الانتقام لوجدت لنفسي السبيل الى جميــل العذر وقلت اني شرطيٌّ وللشرطيّ ان يشتبه ولا تثريب عليه اذا أخطأه التوفيق ولكني فعلته متعمدًا ورميتك متقصدًا واني أشهد انني كنت داني القسوة نائي الرحمة لا أعرف التجاوز عن الخطيئة ولا أعرض عن تلبيب كل من انحرف قيد أنملة عن صراط الشريعة فكيف أرضى اليوم لنفسي ما كنت أأباه بالامس على غــيرها ونفسي كما تعلم أكثر النفوس حرمة عليّ وأولاهن مني بحسن المناصحة أرأيتك كيف يجمل بي ان أنصب بدني في سبيل اصلاح الغير وأنام عن تقويم ما أراه بنفسي من الاعوجاج اني اذن لمن الظالمين

— على اني لا أود ان يخرج بك كرم طباعك عن ســبيل السداد فانتصر منك بك كما انتصرت بك تلك البغي من ذلك الشاب — ولا نلبث على هذا القياس ان تشتبه علينا الامور فيختلط السيد بالمسود والعبد بالمعبود فكن ما شئت رؤوفًا بالعباد وأجمع الى تلك الرأفة صحبة العدل فان في ذلك ردعاً للنفوس وعزًا للشريعة

وخذني باقراري ولا تطمع مجرماً في غير العقاب فلكم كنت أقول لنفسي وهي تجد في طلب الظالمين جدّي أيتها النفس فوالذي أنت بيده لئن انحرفت شعرة عن سواء السبيل لاكونن بك أول الموقعين ·

قال ما دلين وقد فعلت به تلك الكلمات فعلها سننظر في أمرك ثم مد اليه يده للسلام فتقهقر چافير وهو يقول عزيز عليّ ان تصافح يدك الكريمة تلك اليد الاثيمة ثم ركع امامه خاشعاً واستقبل الباب ولما بلغه انفتل اليه ثانياً وقال سأقوم بشؤون وظيفتي حتى يأتي الخلف ثم ولى لوجهه وغادر مادلين في مكانه يلقي بسمعه الى وقع تلك الخطوات المطمئنة



لم تكن تلك الحوادث التي نسطرها للقاريء الكريم بواضحة الاثر في القرية التي وقعت فيها ولكن بعض ما علق بالاذهان من حدوثها قد ترك لها شبه الذكر في النفوس

فلو اننا اغفلنا ذكرها لخرج الكتاب وفيه من الفراغ ما نلام معه على عدم الاتيان بما يسده فها نحن أولاء نذكر ما وصل الى علمنا من خبر ذلك الاثر وان كان فيه بعض مالا يحتمل الوقوع ولكننا نثبته هنا ارادة الوصول الى الحقيقة

ذهبت ما دلين فى عصر اليوم الذي وقع له في صباحه مع جافير ما وقع الى فانتين يعودها وكان من عادته ان يغشاها في حجرتها فوقف في هذه المرة وسأل عنها قبل الدخول ممن كانت تمرضها ·

وكان ببابها اثنتان من الممرضات الراهبات تدعى احداهما (بربيتي) والاخرى (سمبليس) وكانت الاولى من سكان الاطراف بالريف ثم أصبحت راهبة لا لرغبة في الزهد أو نزوع الى خدمة الدين ولكن لمجرد الاحتراف بما تصيب منه الرزق فدخلت في بيت الله دخول الخادم في بيت المخدوم واحترفت بذلك كما تحترف سواها من النساء بحرفة الطبخ ولم يدعها الوجود في الدير الى فوق ما كانت عليه من الخشونة والتقشف بطبعها شأن سكان الاطراف الذين لا يعرفون الترف ولا يألفون النعيم ومن قارن بين حال الراهب وعيش الفقير وجد

بين تقشف الاول وخشونة الثاني نسباً قريباً وصلة غير مقطوعة فلو شاء الناسك ان يصبح راعياً وأراد الراعي ان يمسى ناسكا لوجد كلاهما الى قصده سبيلاً ممهداً وما هو الا ان يدخل أحدهما في ثوب صاحبه

وكانت تلك الراهبة شـديدة القبض على دينها ذات لون يضرب الى الحمرة واقدام في الامور وصـلاح في العمل دائمة التسبيح كثيرة الترتيل وحشية اللهجة وكان باخلاقها بعض العهدة فهي جافية الطبع تغلظ القول للمريض وتمزج له الادوية بتلاوة الاوراد والادعية وتدعو للمحتضر دعاء يمتزج به الغضب كأنها تستعجله قبل حينه بما يرجمه فوها من ذلك الدعاء

أما الثانية فكانت ذات لون يغلب عليه البياض فهي بجانب أختها كالشمعة بجانب الذبالة ولقـد وفق (فانسان دي بول) الى وصف الراهبات في تلك الكلمة التي جمعت بين عزة الحرية وذلة العبودية قال .

التواضـع قناهن وخوف الله شعارهن والطاعة حرزهن قد تخذن البيع للتهجد ودور المرضى للتعبد والمخارف الطرقات وللرياضة الحجرات ذكرنا تلك الكلمة الجامعة في سياق الحديث عند ذكر (سمبليس) ونزيد عليها فنقول يقف الناظر الى تلك العـذراء موقف الذاهـل اذا سأله عن عمرها سائل فقد كتم وجهها سر ماضيها ولم يشأ ان ينمّ على آيتها فلم تنطق ملامحه عن أثر لزوال

الشباب ولا عن خبر لقدوم الهرم وهي قليلة الاكترات كثيرة الأناة قد جمعت في طباعها بين اللين والجفاء فانها لتلين حتى يكاد يعقدها العاقد وتشتد حتى يخافها المعاند كثيرة الصمت قليلة تزويق الكلام تكره الفضول في الحديث فلا تنطق الا بمقدار وتحب الصدق حبا بغض اليها الكذب في الجد والمزاح

تلك هي صفات (سمبليس) وما كتبنا غير ما أملاه علينا لسان فضلها وقد اشتهرت بذلك في عالم الدين حتى ضرب أحد الرؤساء بصدقها المثل في كتاب بعث به الى رفيق له فقال

انه ليجري على لسان اكثرنا تقى وأبعدنا عن المظنة شيء من الكذب فيحمل منه ذلك على سبق اللسان بما لم يجر به الوجدان — ولا يدخل في باب الامكان ان تسقط من (سمبليس) سقطة من هذا النوع فتكذب في شيء كأننا ما كان فانها تعتقد ان الذي يمين في الصغيرة لا يلبث ان يستطرد به جواد المين في الكبيرة وتزعم ان الكذب من أسماء الشيطان فهو عندها أحد اثنين إما ابليس وإما الكذب

فلعل ذلك البياض الذي نراه بوجهها هو أثر ما أودعه الله من النور في سريرتها سريرة لو تمثلت لك أيها القارئ لرأيت لوحا من البلور لا يعلق به الذرّ ولا يقف عليه الغبار

تلك هي الراهبة التي كانت تمرض فانتين وتبالغ في محاسنتها وهي التي أوصاها مادلين بالعناية بها وسألها عنها قبل الدخول في هذه المرة

ولما غادرها ودخل على فانتين وجدها ترتقب رؤيته ارتقاب المقرور شروق الشمس فقالت حين لمحته وهي تغالب كيد الحمى و يغالبها أين (كوزيت)

فقال وهو يتبسم انها قادمة على الاثر ثم جلس عندها يلاطفها حتى استوفي عمر الساعة وكانت لا تلوح بوجهه وهو يحادثها سيما للارتياح لما وقع في نفسه من كلام الطبيب الذي كان ينذره بقرب حينها

ولما قضى لبانته من النظر اليها انكفأ الى حجرته فتناول مرسمة وخط بها في ورقة بعض الارقام ثم خرج وأخذ سمته الى دار رجل يكري الخيل والعجلات فغشيه في منزله وطلب اليه ان يكريه جواداً أصيلاً

— فقال الرجل وما تصنع به قال أطوي عليه عشرين فرسخاً

— قال انها لشقةً طويلة فاملك تبتغيه مشدوداً في عجلة

— قال نعم

— قال وكم يكون ثواءك بعد الوصول

— قال ربما تجشمت السفر في اليوم التالي

قال لتطوى في الجيئة ما طويت في الذهوب

— قال نعم

قال ان عندي جواد كهمك أيها السيّد وهو الابلق الصغير وقد كان صعب الشكيمة لا يستقر فوق منكبيه راكب ولا يدانيه انسان فما زلت به حتى رُضتُ جماحه وأسلست قياده فهو اليوم يسابق الأفكار الى المقاصد ولكنه يرغب عن السرج وينزع الى الجرّ فمن شاء ان ينتفع به فليرغب عن ظهره الى جرّه

قال مادلين أتراه يحسن العدو ويطيل الشوط

قال انه لينهب المسافة التي تريد قطعها نهباً ويطويها خبباً ولا يجد لذلك تعباً على شريطة ان تنفس عنه في اثناء ذلك بعض التنفيس وان يكون معك من يشارفه عند أخذ علوفته ليرد عنه غارة أولئك الخدام بالنزلات وان لا تحمل معك في العجلة شيئاً ثقيلاً دع رفق القائد الذي يقوده وعنايتك بالاشراف عليه وأما أجره في اليوم فلا ينقص عن ثلاثين فرنكاً وذلك سواء في السفر والاقامة

— قال مادلين قبلنا شرائطك فابعث به غداً عند تنفس الصباح ثم ألقي اليه ثلاث قطع من الذهب

وقال هاك أجره ليومين وخرج من عنده ولكنه ما لبث ان عقب اليه وسأله قائلاً

كم تقدّر ثمن العجلة والجواد اذا ساومك فيهما مساوم

— قال أتنوي ابتياعهما

— قال بل أريد ان أقف على مبلغ الثمن خشية الطوارق في الطريق

— قال أربع وعشرون قطعة من الذهب

— قال ها كها ثم خرج ولم يعقب ولبث صاحب الجواد في مكانه يحزُّ الوجد أسفاً على ما فاته من طلب المضاعفة في الثمن وجعل يقول ليتني قد طلبت اليه أكثر من ذلك القدر فاني لأجد منه ريح الاضطرار ولكنها فرصة عرضت فسرحتها عني بوادر العجلة

وذهب مادلين الى مخدعه فلبث فيه بعض ساعة ثم أخذ مضجعه ونام وشباب الظلماء في عنفوان . وكان له صراف يقطن في حجرة بأسفل مخدعه فلما انتصف الليل أو كاد شعر هذا الصراف بحركة فوق رأسه قد قطعت عليه نومه فاستيقظ وجعل يتسمع فسرى اليه صوت وقع لأقدام ثقيل وتدبر في الحجرة التي فوقه فتبينها فاذا هي أقدام سيده وما وقع له قبل الليلة ان يسمع في حجرة مادلين حركة قبل الصباح فعجب لوقوع ذلك في مثل هذه الساعة من الليل . وقال لعلها لأرق نزل به وزاد في عجبه ان سمع صريرًا بأدراج الدولاب فاستوى في سريره قاعدًا وطرد عن عينيه ما علق بهما من كسل النعاس

ونظر من النافذه فلمح على الجدار الذي يقابله انعكاس أشعة فترسمها بالنظر فاذا هي مرسلة من طاق الحجرة التي لسيده فأدمن اليها النظر فألفاها حمراء تضطرب على الجدار اضطرابًا كأنما كان مصدر انبعاثها نارًا تُشب لا سراجًا يضيء

وكانت لا تلوح بها صورة ولا يتراآى فيها خيال فعلم ان زجاج النافذة التي بانت تنبعث منها كان مرفوعاً ولما تحقق ذلك أهوى برأسه الى الوسادة وجعل يعالج النوم من جديد

فاستغرق هزيعاً من الليل ثم تنبه فاذا هو يسمع وقع تلك الاقدام المطمئنة ويرى تلك الاشعة ولكنها قد عرتها الصفرة وعراها السكون فأيقن في هذه المرة أنها لم تكن منعكسة عن غير ضوء السراج

واليك أيها القاري ما وقع منذ الليلة في حجرة مادلين وما لنا لا نقول في حجرة (چان فالچان)وما غاب عنك اننا لا نعني بهذين العلمين الا مسمى واحداً .

﴿ كلمة في سريرة الانسان ﴾

نظرنا قبل اليوم نظرة في مرآة تلك السريرة ثم صوَّرنا للبصر ما لمحته عين البصيرة وها نحن أولاء ننظر فيها النظرة الثانية وان كان من وراء ذلك هزة للنفس ورجفة للفؤاد

يقف أحدكم على شاطئ البحر المحيط فتكبره عينه وتعظمه نفسه فاذا انتقل بنظره الى السماء أصغرت عينه البحر واكبرت نفسه السماء وانه ليتضاءل في عينه المشهدان ويصغر في نفسه الكونان اذا ما نظر بعين الوجدان في مرآة سريرة الانسان — فانك لا تجد مشهداً يحرك النفوس وتقف دونه مدارك الافهام كذلك المشهد — فهو اذا

أضاء ذهب سناؤه بالبصر واذا أدجى أعيت ظلمته الفكر وقلّ ان تستقر فيه عين البصيرة على شيء تُلِمُّ بكنهه أو تخترق حجاب سره لا تداد أمده وفرط غموضه

فلو انك حاولت وصفاً لأدنى سرائر البشر وعمدت في ذلك الى قرض الشعر والاستعانة بالخيال لاعوزك الوصف وأعجزك الوصول اللهم الا اذا نزعت الى جمع ما قيل من القصائد والاناشيد منذ خط القلم الى أوان العدم وأذبت الجميع في بودقة الفكر ثم استللت منها سبيكة شعرية يتناول حسنها ما وراء النفوس ويجلو رونقها صداء الخواطر

فالسريرة هي ميدان الشهوات ومهبط الجزيات بل قارورة الغرور وتنور الاحلام وموطن المطامع ومسرح الاباطيل ألا ترى انك لو ظفرت باحدنا وقد لاحت عليـــه سيما التفكر والانشغال ثم نظرت في صورته وكنت ممن يكشف لهم الغطاء عما يجول في قرارة النفس وخلجان الفؤاد أما كنت ترى تحت ذلك السكون العميق حرباً قائمة وخيالات مشتبكة – نعم انه ليتمثل لعينك في ضمير هذا الفؤاد ويتراءى لك بين دفتيْ ذلك الحيزوم ما سطره (هومير) وذكره (ميلتون) وتوهمه (دانتي) ولقد طال بنا الوقوف أيها القارئ على باب ذلك المشهد العظيم ونحن نتهيب ط قه [illegible] خول فيه ولكنا سنشدّ منا ونقدم على فتحه و[illegible]